التحذير من الدنيا في قصيدتي (نهج البردة، وذكرى المولد النبوي) لأحمد شوقي، دراسة بلاغية وموازنة

إعداد

د/ ياسر عبدالحميد عرقوب

أستاذ البلاغة والنقد في قسم اللغة العربية ،بكلية التربية والآداب جامعة تبوك ،المملكة العربية السعودية

المستخلص :

تقوم هذه الدراسة على التحليل البلاغي لنموذجين لأمير الشعراء أحمد شوقي حذَّر فيهما من الدنيا في قصيدتين من غرر قصائده (نهج البردة، وذكرى المولد النبوي)، ودراستهما دراسة بلاغية تبرز جمالهما، وتكشف عن دواعيهما وبلاغتهما، والموازنة بينهما.

وقد استعرضَت الدراسة بالتحليل البلاغي كل نموذج على حدة في مبحث مستقل، وإبراز الأسرار البلاغية في كل نموذج، وأتبعت ذلك بعقد موازنة بين النموذجين .

وقد وضح من خلال البحث قوة شاعرية شوقي، وعظمة إبداعه، وثراءه اللغوي والخيالي؛ حيث عرض البحث نموذجين له في غرض واحد، وهو غرض الحكمة، لكنه في كل نموذج يخلق معاني جديدة، وصورا مختلفة تنم عن شاعرية فذة وقدم في الشعر راسخة. كذلك بدا من خلال البحث الحس الديني القوي عند شوقي، والخبرة العالية بالحياة وتقلباتها، حتى أصبح خبيرا يتصدى لوعظ الناس والأخذ بأيديهم إلى الفضائل، كل ذلك في أسلوب عال، وبلاغة متفردة.

الكلمات المفتاحية: التحذير من الدنيا ، نهج البردة ، ذكرى المولد النبوي ، أحمد شوقي ، دراسة بلاغية موازنة.

Abstract:
This study is based on the rhetorical analysis of two models by the Prince of Poets Ahmed Shawqi, in which he warned against the world in two of his most valuable poems (Nahj al-Burda, and the memory of the Prophet's birthday), and studying them with a rhetorical study that highlights their beauty, reveals their motives and rhetoric, and compares them.
The study reviewed each model separately in a separate section through rhetorical analysis, and highlighted the rhetorical secrets in each model, followed by drawing a comparison between the two models.
The research clarified the strength of Shawqi's poetry, the greatness of his creativity, and his linguistic and imaginative richness; The research presented two models for one purpose, which is the purpose of wisdom, but in each model it creates new meanings and different images that reflect unique poetry and a solid foothold in poetry. The research also showed Shawqi's strong religious sense and high experience in life and its fluctuations, until he became an expert who takes on preaching to people and taking them by the hand to virtues, all in a high style and unique eloquence.

Keywords: Warning against the world - Nahj al-Burda - The anniversary of the birth of the Prophet - Ahmed Shawqi, a rhetorical study - comparison.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فلا ينكر أحد مكانة أحمد شوقي الشعرية، ومنزلته الرفيعة بين الشعراء، وتميزه في شتى فنون الشعر، حتى إنه كان كما وصفه الدكتور/ شوقي ضيف" لا يصرف وهمه إلى نظمه حتى تأتيه المعاني سيولا، وتنثال عليه انثيالا، إذ كان دائما حاضر الذهن يقظ الروح... ولم يكن الشعر يتأبى عليه، ولم يحتج فيه إلى إجالة فكره، فهو مُعَدٌّ دائما لتهبط عليه ربة الشعر بوحيها وإلهامها" [1].

والمطالع لديوان شوقي يلحظ التنوع في الأغراض الشعرية التي تناولها الشاعر، وأبدع فيها كالمدح والوصف وغيرهما، ولعل من أهم الأغراض التي تحدث فيها أمير الشعراء، وبدا تميزه وإكثاره منها في أشعاره (شعر الحكمة)، حيث بدا واضحا تفرق هذا الغرض في معظم قصائده، حيث يقف موقف المجرب الخبير بالحياة وتقلباتها مرتديا ثوب الناصح الأمين لإرشاد متلقيه، والأخذ بأيديهم إلى سبل الهدى والرشاد.

وهذه دراسة لنموذجين يندرجان تحت غرض الحكمة اشتملت عليهما قصيدتان من غرر قصائده؛ هما قصيدتا: نهج البردة، وذكرى المولد النبوي، حيث استرعى انتباهي وأنا أطالع شعره هذا التقارب بين النموذجين في الفكرة والصور وغيرها؛ مما دعاني لدراسة هذا الموضوع فاستعنت بالله تعالى وجعلته بعنوان: التحذير من الدنيا في قصيدتي (نهج البردة، وذكرى المولد النبوي) لأحمد شوقي، دراسة بلاغية، وموازنة.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة الاعتماد على المنهجين: التحليلي والمقارن؛ لإبراز الأسرار البلاغية الكامنة في النموذجين، وكشف مواطن الجمال فيهما، ومن ثم الموازنة بينهما.

وقد جاءت في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت الحديث عن أهمية الموضوع، وبواعث اختياره، ومنهج السير في دراسته.

التمهيد: وقد اشتمل على:

أولا: التعريف بالشاعر (أحمد شوقي).

ثانيا: بين يدي القصيدتين.

المبحث الأول: بلاغة شوقي في التحذير من الدنيا في قصيدة نهج البردة.

المبحث الثاني: بلاغة شوقي في التحذير من الدنيا في قصيدة ذكرى المولد النبوي.

المبحث الثالث: موازنة بين القصيدتين.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[1] شوقي شاعر العصر الحديث، د/ شوقي ضيف، صـ58،59، دار المعارف، ط7.

التمهيد

أولا: التعريف بالشاعر (أحمد شوقي):

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي شوقي بن أحمد شوقي، ولد في القاهرة سنة1868م، أشهر شعراء العصر الحديث [1]، يضرب بأجداده إلى الأتراك والعرب واليونان والجركس، فهو- كما حدث عن نفسه- "عربي، تركي، يوناني، جركسي، فتآزرت فيه هذه العناصر، وأخرجت منه شاعرا ممتازا، لعل مصر لم تظفر بمثله في عصورها المختلفة" [2]، لكنه مصري المولد والنشأة والإقامة، ومصري الأب والأم كذلك.

التحق بمكتب الشيخ صالح بحي السيدة زينب بالقاهرة وهو في الرابعة من عمره، ثم مدرسة المبتديان الابتدائية، ثم المدرسة التجهيزية (الثانوية)، ثم التحق بمدرسة الحقوق سنة1885م، ودرس بها سنتين، وكان قسم الترجمة قد أنشئ بها فعدل شوقي إليه، ولبث به سنتين أخريين، ونال الشهادة النهائية [3].

وقد أعجب به الخديوي توفيق وبشعره فأوفده إلى فرنسا ليتم دراسة الحقوق والآداب هناك، ثم عاد إلى مصر بعد أربعة أعوام، وتولى منصبه في معية الأمير، ولما توفى توفيق سنة1891م تولى ابنه عباس فقرب شوقيا إليه، وأخذ يتدرج في المناصب بالقصر حتى تولى رياسة القلم الإفرنجي [4].

وارتفعت مكانته في عهد الخديوي عباس حتى إنه لقب بشاعر الأمير، وكان من خاصة عباس ومستشاريه، ولما قامت الحرب العالمية الكبرى 1914-1918م، أعفي من منصبه في ديسمبر1914م، ثم نفي من مصر، فاختار برشلونة مثوى له ولأسرته، ولم يؤذن له في العودة إلى مصر إلا في آخر سنة1919م [5].

وبعد عودته إلى مصر عين في مجلس الشيوخ، وعاش حياة مترفة منعمة، فكان "يسمي لياليه (نواسيات)، ومنزله (كرمة ابن هانئ)، وبستانه (عش البلبل)، وكان يحب السهر والأنس وأحاديث السمر، فإذا تطرق السامرون إلى حديث السياسة انفلت من بينهم وغشي قوما آخرين" [6].

وكانت لشوقي طريقته الخاصة في التعبير والتصوير، وكان مبتكرا مجددا على قدر ما أتيح له الابتكار والتجديد.

وهو يتبع المدرسة الكلاسيكية، ومن أبرز مبادئها: "الامتياز بقدرة التفكير وسمو المعنى وروعة الخيال وهدوئه، وجمال العاطفة، وطمأنينتها، وفصاحة الأسلوب، وسحر الألفاظ، ووضوح الموسيقى، وجودة الصياغة اللغوية، والأناقة في التعبير" [7]، وكل هذه كفيلة بأن تنتج شاعرا مجيدا يستحق أن يتولى إمارة الشعر.

ويعد شوقي واحدا من أبرز شعراء الإحياء، وهؤلاء يرجع لهم الفضل في إعادة الهيبة والقيمة لعمود الشعر العربي بعد فترات الانحطاط التي اعترته لفترة من الزمن.

كما يعد أيضا واحدا من أبرز شعراء المعارضات، حيث عارض البوصيري وابن زيدون والبحتري وغيرهم، وعلى الرغم من أنه مقلد في بعض قصائده، إلا أنه يظهر مقدرته الشعرية،

---

(1) ينظر: معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، د/ إيميل يعقوب، 95/1، دار صادر، بيروت، وأيضا: مقدمة ديوان شوقي، د/ أحمد مطلوب، صـ3 وما بعدها، دار نهضة مصر، القاهرة.

(2) شوقي شاعر العصر الحديث، صـ9.

(3) ينظر: وطنية شوقي، د/ أحمد محمد الحوفي، صـ96،97، دار نهضة مصر، ط3.

(4) ينظر: شوقي شاعر العصر الحديث،صـ16،17.

(5) ينظر: أبي شوقي- حسين شوقي،صـ540، مطبعة مصر،1947م.

(6) معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، د/ إيميل يعقوب،95،96/1.

(7) أدب عصر النهضة، د/شفيق البقاعي، صـ206، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،ط1990،1م.

وقدراته الإبداعية فيما يقلده، حيث يخلق المعاني خلقا جديدا، ويولد الفكرة، ويطبعها بطابعه الخاص، فيحظى شعره بالتميز والتجديد والإبداع.

ولشوقي مكانة عظيمة بين الشعراء، أشاد بها أبرز شعراء عصره -حافظ إبراهيم- في قصيدة مطلعها:

بَلَابِلُ وادي النّيل بالمَشْرِقِ اسْجعي* بِشِعرِ أَمِيرِ الدولَتَيْنِ وَرَجِّعِي**

أَعِيدِي على الأَسْمَاع مَا غَرَّدَتْ بِهِ* يَرَاعَةُ شَوْقِي فِي ابْتِدَاءٍ وَمَطْلَعِ** [1]

وقد اعترف فيها ببراعة شوقي، وتمكنه من أدوات الشعر، وحسبه ما وصفه به الأستاذ عباس حسن بأنه" شاعر العربية الأكبر، وأمير بيانها المجلّي" [2].

وفي الثالث عشر من جمادى الثانية عام1356هـ، الموافق الرابع عشر من يونية عام1932م انتقل شوقي إلى جوار ربه، وسقطت قيثارة الشعر من يده مخلفة ثروة شعرية عظيمة، فبكته مصر والعالم العربي، وأقيمت له حفلات التأبين داخل مصر وخارجها.

رحم الله أمير الشعراء وطيب ثراه، وجعل الجنة مقره ومثواه.

ثانيا: بين يدي القصيدتين:

أولا: قصيدة نهج البردة [3]:

نالت قصيدة البردة في مدح الرسول ﷺ لكعب بن زهير مكانة وشهرة ربما لم تصل إليها قصيدة غيرها، وقد نسج على منوالها الإمام البوصيري قصيدة أسماها بالاسم نفسه، وتابعهما أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدة معنونة بـ"نهج البردة".

"وقد جمع بين هذه القصائد خط فكري يكاد يكون واحدا انطلق من التسمية التي صارت علما عليها، فقد عرفت قصيدة كعب بالبردة، ومن بعده كانت بردة البوصيري، ثم جاءت نهج البردة لأمير الشعراء تيمنا ببردة الرسول عليه الصلاة والسلام" [4].

وقصيدة نهج البردة إحدى إلهامات بردة البوصيري التي ألهمت الكثيرين من الأدباء والشعراء على مر العصور.

وقد نظمها شوقي في مناسبة حج الخديوي عباس سنة1327هـ/ 1909م؛ "وكان يرجو أن تكون هذه المناسبة إلى جانب الاتجاه الديني في القصيدة مما يضمن لها الذيوع بين الناس كما ذاعت البردة، وطُبع يوم ذاك شرح لتلك القصيدة قيل إنه من عمل المغفور له الشيخ سليم البشري - وهو في مقامه الديني من هو - ليضفي عليها القداسة، ولكن أهل الخبرة يؤكدون أن ذلك الشرح كان من عمل نجله المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري، وإن كان الشيخ عبد العزيز ظل ينفي هذه التهمة إلى آخر أيامه، عليه رحمة الله" [5].

وهي قصيدة طويلة قوامها مائة وتسعين بيتا، وهي إحدى روائع أحمد شوقي الشعرية، وعلى الرغم من كثرة نتاجه الشعري، وطرقه لمعظم أبواب الشعر إلا أن نهج البردة تظل بمنزلة الرأس من الجسد بالنسبة لقصائده.

---

[1] ديوان حافظ إبراهيم،91/1، دار صادر، بيروت، ط1409،1هـ-1989م.

[2] المتنبي وشوقي وإمارة الشعر، دراسة ونقد وموازنة، عباس حسن، صـ7، دار المعارف، مصر، ط3.

[3] ينظر: ديوان شوقي، ت. د/ أحمد الحوفي، 617/1، مطبعة نهضة مصر، الفجالة- القاهرة. وقد قدمت الحديث عن عن نهج البردة نظرا لأسبقيتها، حيث قالها شوقي عام 1909م، ونشرت بمجلتي المؤيد والهلال عام 1910م، أما قصيدة ذكرى المولد النبوي فقد نشرت بجريدتي: عكاظ وسركيس عام 1914م.

[4] ثلاثية البردة بردة الرسول ﷺ، لحسن حسين، نشر: دار الكتب القطرية – الدوحة، الطبعة: الأولى – 1400هـ،12/1.

[5] مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا، عدد: 1025، ج749 ص48.

وقد بدأها بالنسيب على نهج الشعراء السابقين، وافتتحها بمقدمة غزلية رائعة، صور فيها محبوبته بظبي حسن المنظر رشيق القوام، وقد افتتن به حتى قتله عشقا وصبابة:

ريم على القاع بين البان والعلم *** أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا *** يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

ثم ينتقل شوقي بعد ذلك إلى مخاطبة نفسه واعظا إياها، ومبديا الندم على ما سبق من ذنوبه، وذلك في أبيات كلها حكم ومعاني راسخة، يحذر فيها من الدنيا ومغرياتها:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية *** وإن بدا لك منها حسن مبتسم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه *** فقوّم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية *** والنفس من شرّها في مرتع وخم

ثم يتخلص من ذلك إلى غرضه الرئيس، وهو مدح أشرف الخلق ﷺ، ويطيل في ذلك، متعمقا في بيان ما بدا له من فضل الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فهو صاحب الفضل والبر والإحسان والمعروف، وأن المؤمن الحق هو من يأخذ عنه هذه الأخلاق الحميدة ويلتزم بها.

محمد صفوة الباري ورحمته *** وبغية الله من خلق ومن نسم

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر بعض معجزات النبي ﷺ، كقصة الراهب بحيرى المشهورة، وتفجر الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ، وتظليل الغمامة له.

ثم تطرق إلى الحكمة وضرب الأمثال، ثم إلى التضرع والتوسل ليكون ذلك مهادا إلى مدح الرسول ﷺ، والحديث عن صفاته الطيبة الكريمة مشيرا إلى معجزته الكبرى القرآن الكريم، ومبينا منزلته العظمى بين الكتب السماوية الأخرى، كما تناول كذلك مولد النبي ﷺ، والمبشرات التي سبقته، ثم تحدث عن معجزة الإسراء والمعراج، ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن الهجرة وما حدث فيها من عناية إلهية للنبي ﷺ وصحبه.

ولم يفت شوقي أن يشير في قصيدته إلى فضل السبق للإمام البوصيري في أبيات تتجمل بالتواضع والاعتراف بالفضل لأهله، كما تحدث شوقي بعد ذلك عن بعض صفات الرسول ﷺ كالشجاعة وجمال الطلعة والكرم وغيرها.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن جهاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وحث المسلمين على العودة إلى منابع الشريعة الإسلامية الغراء، مادحا المسلمين الأوائل الذين أعانوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم في دعوته وناصروه، ثم يمتدح الخلفاء الراشدين ويبين صفاتهم السامية ومآثرهم الباقية.

وينهي شوقي قصيدته الطويلة بالصلاة والسلام على الأنبياء وعلى رأسهم الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم الذي هو خير الرسل وخاتم النبيين، داعيا المسلمين أن يستيقظوا من سباتهم، ويعودوا لسيرتهم الأولى لتكون لهم السيادة والنصر.

ثم يختم شوقي قصيدته بالتوجه إلى الله عز وجل والتضرع إليه أن تعم السعادة والفضل شعوب الأمة الإسلامية، وأن يخفف عنهم العناء، ويحسن ختامهم، كما أحسن بدأهم:

يا رب أحسنت بدء المسلمين به *** فتمم الفضل وامنح حسن مختتم.

وقد قيل: إن أمير الشعراء أحمد شوقي قد أوصى أن يكتب على قبره من قصيدته الفريدة (نهج البردة) هذا البيت الرائع:

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل *** في الله يجعلني في خير معتصم[1].

ثانيا: قصيدة ذكرى المولد النبوي[2]:

---

[1]- ينظر: مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا، عدد: 1025، ج909ص21.

[2] ينظر: ديوان شوقي، 606/1.

كان للشعر الإسلامي نصيب وافر في شعر شوقي، ولا سيما الشعر المختص بالرسول ﷺ، حتى إن ديوانه يشتمل على جزء خاص بذلك تحت اسم: "نبويات" [1]، وقصيدة ذكرى المولد النبوي إحدى روائع مدح الرسول ﷺ لأمير الشعراء أحمد شوقي، وتقع في واحد وسبعين بيتا، وقد ذكر فيها بعض مكارم ومزايا الرسول ﷺ، وذلك بعد مقدمة عرض فيها معاناته وتجربته في الحياة.

وقد استهلها الشاعر بمقدمة غزلية كشف فيها عن معاناته مع الجمال الذي أفقده صوابه، مما جعله يذرف الدمع الغزير، وتحمَّل قلبه ألما وعذابا لا تستطيع تحمله قلوب أخرى ولو كانت مخلوقة من حديد.

سَلُوا قَلْبِي غَدَاةَ سَلَا وَتَابَا *** لَعَلَّ عَلَى الْجَمَالِ لَهُ عِتَابَـــــــا
وَيُسْأَلُ فِي الْحَوَادِثِ ذُو صَوَابٍ *** فَهَلْ تَرَكَ الجَمَالُ لَهُ صَوَابَا؟!
وَكُنْتُ إِذا سَأَلْتُ الْقَلْبَ يَوْمًا *** تَوَلَّى الدَّمْعُ عَنْ قَلْبِي الْجَوَابـــــا
وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ *** هُمَا الْوَاهِي الَّذِي تَكِلُ الشَّبَابَـــــا
تَسَرَّبَ فِي الدُّمُوعِ فَقُلْتُ: وَلَّى *** وَصَفَّقَ فِي الضُّلُوعِ فَقُلْتُ: ثَابَا
وَلَوْ خُلِقَتْ قُلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ *** لَمَا حَمَلَتْ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابـــــــا [2]

وبعد هذه المعاناة مع أثار الجمال انتقل الشاعر لإبراز خبرته وتجربته في أمور الحياة، محذرا من الدنيا وتقلباتها، ليخلص إلى أن الاقتناع بحكم الله ولزوم بابه هو السبيل إلى النجاة والبر:

أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى *** تُبَدِّلُ كُلَّ آونَةٍ إِهابـــــا
وَأَنَّ الرُقطَ أَيقَظُ هاجِعاتٍ *** وَأَترَعُ في ظِلالِ السِلمِ نابا
وَمِن عَجَبٍ تُشَيِّبُ عاشِقيها *** وَتُفنيهِمْ وَما بَرِحَتْ كَعابا
فَمَن يَغتَرُّ بِالدُنيا فَإِنّـــي *** لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثِيابـــا
لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابى
جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا" ** "وَذُقتُ بِكَأسِها شَهدًا وَصابا
فَلَم أَرَ غَيــرَ حُكمِ اللهِ حُكمًا *** وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابـــا
وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إِلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا
وَلا كَرَّمتُ إِلا وَجهَ حُرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَهُ المِنَنَ الرَغابـــا
وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابـــا
فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنها *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابـــا
وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخرًا *** وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابـــا
فَلَو طالَعتَ أَحداثَ اللَيالي *** وَجَدتَ الفَقرَ أَقرَبَها انتِيابـــا
وَأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَياةٍ *** وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابا
وَأَنَّ الشَرَّ يَصدَعُ فاعِليهِ *** وَلَم أَرَ خَيِّرًا بِالشَرِّ آبا

[1] ينظر: السابق، 595/1.
[2] ديوان شوقي،606/1.

وفي الأخير يصل الشاعر إلى غرضه الأساس الذي هو مدح الرسول ﷺ، مبينا ما بدا له مما يتحلى به عليه الصلاة والسلام من صفات البر والإحسان، وأنه هدى الناس وأخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. كما تعرض الشاعر أيضا لجهاد النبي ﷺ وكفاحه في سبيل تثبيت دعائم الحق ونصرته، وإعلاء كلمة الله تعالى. وفي نهاية القصيدة سجل الشاعر أن مدحه للنبي ﷺ كان سببا لأن يبلغ الشاعر أرفع المراتب، وأنه أكسبه علوا وشرفا وعزة.

والخلاصة: أن قصيدة ذكرى المولد لأمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة إحيائية حافظت على الكثير من مقومات الاتجاه الإحيائي مضمونا وشكلا، وامتازت ببراعة الاستهلال، وحسن التخلص، وتعدد الأغراض والموضوعات على نهج الشعراء القدامى.

المبحث الأول
بلاغة شوقي في التحذير من الدنيا في قصيدة نهج البردة

يقول شوقي:

يا نَفسُ دُنياكِ تُخفي كُلَّ مُبكِيَةٍ *** وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ
فُضّي بِتَقواكِ فاهًا كُلَّما ضَحِكَتْ *** كَما يُفَضُّ أَذى الرَقشاءِ بِالثَرَمِ
مَخطوبَةٌ مُنذُ كانَ الناسُ خاطِبَةٌ *** مِن أَوَّلِ الدَهرِ لَم تُرمِل وَلَم تَئَمِ
يَفنى الزَمانُ وَيَبقى مِن إِساءَتِها *** جُرحٌ بِآدَمَ يَبكي مِنهُ في الأَدَمِ
لا تَحفَلي بِجَناها أَو جِنايَتِها ** المَوتُ بِالزَهرِ مِثلُ المَوتِ بِالفَحَمِ
كَم نائِمٍ لا يَراها وَهيَ ساهِرَةٌ *** لَولا الأَمانِيُّ وَالأَحلامُ لَم يَنَمِ
طَورًا تَمُدُّكَ في نُعمى وَعافِيَةٍ *** وَتارَةً في قَرارِ البُؤسِ وَالوَصَمِ
كَم ضَلَّلَتكَ وَمَن تُحجَب بَصيرَتُهُ *** إِن يَلقَ صابا يَرِد أَو عَلقَمًا يَسُمِ
يا وَيلَتاهُ لِنَفسي راعَها وَدَها *** مُسوَدَّةُ الصُحفِ في مُبيَضَّةِ اللَمَمِ
رَكَضتُها في مَرِيعِ المَعصِياتِ وَما *** أَخَذتُ مِن حِميَةِ الطاعاتِ لِلتُخَمِ
هامَت عَلى أَثَرِ اللَذّاتِ تَطلُبُها *** وَالنَفسُ إِن يَدعُها داعي الصِبا تَهِمِ
صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُهُ *** فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِمِ
وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ *** وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ
تَطغى إِذا مُكِّنَت مِن لَذَّةٍ وَهَوًى *** طَغيَ الجِيادِ إِذا عَضَّت عَلى الشُكُمِ[1]

المعنى العام للأبيات:

تأتي هذه الأبيات بعد أن تحدث شوقي في مطلع قصيدته عن المحبوبة، ووصفها بأوصاف الجمال، ووصف تمنعها وصعوبة الوصول إليها؛ لقوة أبيها ومكانته؛ ولعفتها وطهارتها؛ ولذلك تيقن بأنها لن يتحقق منها وصال، وأن الوصول إليها ربما لن يتحقق إلا في الأحلام، ثم ينتقل في هذه الأبيات إلى الحديث عن الدنيا، وخداعها للأحياء، ولعبها بهم، محذرا منها، ومن فتنتها، مهما أظهرت من محبة ووداد، ثم يشبهها بالحية الرقشاء حسنة المنظر سيئة المخبر، داعيا إلى عدم الانخداع بها؛ فهي محل إعجاب لكل أحد، والجميع يلهث وراءها كالفتاة الجميلة التي يتبعها الخُطّاب في كل الأوقات، وعلى العاقل ألا يغتر بها، وينخدع بما تبديه من ابتسام وحب؛ لأنها سرعان ما تنقلب إلى الضد، وأن إساءتها أكثر من إحسانها.

ولم يتركنا الشاعر نهبا لهذه الدنيا الفاتنة الغادرة، وإنما بيّن لنا طريق الخلاص والانفلات من مكرها، وعدم الركون إليها، هذا الطريق يتمثل- كما وضحه الشاعر- في حسن الخلق، وتحصين النفس به، وأيضا بيان حقيقة هذه النفس للإنسان، وأنها تطغى وتسلك طريق الغواية إذا لم يتعاهدها صاحبها بالزجر والإمساك عن كل هذه المغريات.

التحليل البلاغي:

تخلص الشاعر من معاناته مع المحبوبة- في الأبيات قبلها- وتمنعها عليه تمنعا يجعلها أبعد من ساكن الأجم، وهنا عادت إليه بصيرته، ورجع إلى نفسه فوجد أن الدنيا قد فتنته ولعبت به، فأنشأ يذمها، وينصح بالحذر منها، والحيطة من غدرها، وهو تخلص في غاية الحسن والروعة؛ مما يدل على براعة الشاعر، وتملكه ناصية البيان.

وقد استهل شوقي هذه الأبيات بمخاطبة النفس، وتحذيرها من الدنيا، وعدم الاغترار بابتسامها وتلوُنها، وتلمُّس طريق التقوى للتغلب على خداعها وغرورها، حيث يقول:

يا نَفسُ دُنياكِ تُخفي كُلَّ مُبكِيَةٍ *** وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ

---

[1] ديوان شوقي،620/1.

فُضّي بِتَقواكِ فاهَا كُلَّما ضَحِكَتْ *** كَما يُفَضُّ أَذى الرَقشاءِ بِالثَرَمِ [1]

وافتتاح الأبيات بهذا النداء (يا نفس) تجريد يلفت النظر إلى ما سيأتي بعده من أوامر ونواهي، واستعمل الشاعر أداة النداء الياء، وهي تستعمل لنداء البعيد؛ لتتيح له بامتداد حرف المد (الألف) إخراج ما في نفسه من آهات؛ وليصل صوته إلى مدى أبعد فتكون ساحة السماع أوسع، وليبلغ التحذير أكبر عدد ممكن؛ ولذلك نراه يأتي بالمنادَى (النفس) مجردا عن الإضافة، فلم يقل يا نفسي؛ للدلالة على عمومية النداء، وإفساح المجال حتى يشمل كل نفس؛ مما يدلل على امتلاء صدر الشاعر بالحنق على الدنيا وما تفعله بالأحياء، وحرصه على التنبيه لأخذ الحذر منها ومن أفاعيلها.

وبعد هذا العموم يسلك الشاعر طريقا مغايرا، وهو طريق التخصيص من خلال إضافة الدنيا إلى ضمير المنادَى (دنياك)؛ إمعانا في التحذير من الدنيا، وكأن كل إنسان له دنيا خاصة به، تتلون له وتخدعه، وكأنه شغلها الشاغل، ليس لها سواه؛ مما يبالغ في ذمها، وضرورة أخذ الحذر منها.

والتعبير بالمضارع (تخفي كل مبكية)، دلالة على تجدد الخداع والمكر، تجددا يشي باستمرارهما وديمومتهما، ساعده التعبير بأداة العموم (كل)، وما تفيده من أن الدنيا مجمع المبكيات، ومخزن الأحزان والأذى، وحذف الموصوف وإقامة الصفة مكانه في قوله: (كل مبكية)، والتقدير: كل مصيبة مبكية، إيجاز يدل على ضيق صدر الشاعر بالدنيا، وتناسب مع مقام التحذير بإيراد الكلام مركزا موجزا؛ مما يزيد الإحساس بأسى الشاعر، وحرصه على بلوغ التحذير من الدنيا أبعد مدى.

وفي الشطر الثاني من البيت يمتد عطاء التحذير والتخويف من خلال كشف بعض مظاهر هذا الخداع؛ وذلك بإظهارها السرور والابتسام على الرغم من كثرة ما تخفيه من المبكيات والأحزان، وذلك في قوله: (وإن بدا لك منها حسن مبتسم)، وكأنه يهمس في أذن كل نفس بألا تنخدع بما تبديه الدنيا، وأن لها باطنا يخفي خلاف ما تظهره.

وبمعاودة التأمل في البيت نلحظ سيطرة أسلوب المقابلة بين الشطرين لكشف حقيقة الدنيا، وإبراز بعض مظاهر خداعها ومكرها، فهي تخفي خلاف ما تظهر، وتتخذ الابتسام طريقا إلى الضرر والأذى، ولا يخفى ما للمقابلة من تأثير وجمال، فهي "تؤثر في الأسلوب شكلا ومضمونا، ففي الشكل توجد نمطا من التوازن والتناسب له حسنه وبهاؤه، فالألفاظ متجانسة، والجمل متوازنة، والتقابل بينها يحدث أثرا صوتيا له قيمته في وقع الأسلوب، وفي المضمون تظهر المعنى واضحا قويا مترابطا، ففيها يتم ذكر الشيء ومقابله، وعقد مقارنة بينهما، فتتضح خصائص كل منهما، وتتحدد المعاني المرادة في الذهن تحديدا قويا" [2]، وقد وفق الشاعر في استعمال أسلوب المقابلة هنا؛ ليعقد مقارنة بين ما تخفيه الدنيا وما تظهره؛ فينكشف خداعها وزيفها.

وكما سيطرت المقابلة على البيت الأول، يسيطر التشبيه على البيت الثاني، الذي يبين فيه الشاعر طريقة التغلب على خداع الدنيا ومكرها؛ وذلك من خلال التسلح بالتقوى، وإشهار هذا السلاح القوي في وجهها كلما أرادت خداعه والنيل منه:

فُضّي بِتَقواكِ فاهَا كُلَّما ضَحِكَتْ *** كَما يُفَضُّ أَذى الرَقشاءِ بِالثَرَمِ

والتشبيه هنا تشبيه مركب، شبه فيه الشاعر حال الإنسان الذي يتقي أذى الدنيا، ويتغلب على خداعها من خلال التحصن بالتقوي بحال من يتعامل مع الحية بكسر سنها؛ اتقاء لشرها.

وقد تآزر هذا البيت مع البيت السابق لبيان حقيقة الدنيا من خلال تشبيهها بالحية، ولكنها ليست مجرد حية عادية، وإنما هي حية رقشاء، أي ذات شكل جميل جذاب، مبالغة في التحذير من الدنيا، ودفعا لأخذ الحيطة منها، وحذف الموصوف أيضا الحية، وأقيمت الصفة (الرقشاء) مكانه تركيزا في الأسلوب، ودلالة على ضيق صدر الشاعر بالدنيا وبأفعالها.

---

[1] الرقشاء: الحية المنقطة بسواد وبياض. الثرم: كسر السن من أصله اتقاء الأذى.

[2] دراسات منهجية عي علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت صـ66،67، دار خفاجي للنشر والطباعة، القليوبية- مصر.

كما لعبت الاستعارة أيضا في البيتين دورا رائدا في تجلية المعنى وإبرازه، وذلك من خلال تصوير الدنيا في البيت الأول بإنسان يبتسم (وإن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ)، وفي البيت الثاني بإنسان يضحك (فُضّي بِتَقواكِ فاهَا كُلَّما ضَحِكَتْ)، وهما استعارتان رائعتان صورتا الدنيا إنسانا مخادعا يضحك في الظاهر، لكنه يخفي بداخله كل ألوان الحقد والغل؛ زيادة في كشف الخداع والمكر الذي تكنه الدنيا لبني البشر؛ فهي تارة تبتسم وتارة تضحك، متخذة مظاهر متعددة، وأشكالا متنوعة؛ لينطلي خبثها وخداعها على الإنسان فيقع فريسة لها.

كما أن تصوير التقوى- في البيت الثاني- بإنسان قادر على التغلب على أذى الدنيا واتقاء شرها وكسر شوكتها، استعارة بليغة أيضا تجسد التقوى سلاحا نافذا يكفي الإنسان أذى الدنيا وشرها.

ويستطرد الشاعر في الأبيات التالية؛ لزيادة كشف حقيقة الدنيا، ببيان أنها خادعة فاتنة، وأنها لما تبديه من سرور وحسن زائفين تظل هدفا وغاية لكل إنسان، فالجميع يلهث وراءها، ويتمنى وصالها، مع أنها- في الحقيقة- تؤذيه وتبكيه، وتضمر له كل سوء، ومع ذلك يظل متعلقا بأهدابها؛ فيظل جرحها داميا أبد الدهر، وذلك قوله:

مَخطوبَةٌ مُنذُ كانَ الناسُ خاطِبَـــــــةٌ *** مِن أَوَّلِ الدَهرِ لَم تُرمِل وَلَم تَئِمِ

يَفنى الزَمانُ وَيَبقى مِن إِساءَتِهـــــــا *** جُرحٌ بِآدَمَ يَبكي مِنهُ في الأَدَمِ [1]

والمعنى: "أنه ما زال الناس من أول عهدهم بالحياة راغبين فيها، متطلعين إلى نعيمها، وما زالت هي راغبة فيهم متوسلة بأسباب فتنتها إلى عقولهم، فلا هي تتركهم وتسكن عنهم، ولا هم يفترون عنها ويزهدون فيها، وشبهها وإياهم في فرط الرغبة واتصال أسباب الألفة بالمرأة المخطوبة التي لم يصدع بينها وبين خطيبها موت، ولم تنزل بهما فرقة" [2].

والفكرة المسيطرة على هذين البيتين هي تأصيل عداوة الدنيا، وإثبات امتداد عداوتها لبني البشر منذ بدء الخليقة إلى نهايتها، من خلال ذكر أبي البشرية (آدم- عليه السلام) وما حدث له، وأيضا من خلال بقاء أثر إساءتها إلى آخر الزمان.

وقد اشتمل صدر البيت الأول على موضعين للحذف هما:

الأول: حذف المسند إليه في أول البيت (مخطوبة)، والتقدير: هي مخطوبة.

الثاني: حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في قوله: (مخطوبة)، والتقدير: هي كالفتاة المخطوبة، والحذف في الموضعين للإيجاز، والدلالة على ضيق صدر الشاعر بالدنيا وبتعلق الناس بها، وأيضا للمبادرة إلى مزيد كشف لحقيقة الدنيا، والتحذير من فتنتها.

ولأن الفكرة المسيطرة على الشاعر هنا هي إثبات قِدَم ودوام عداوة الدنيا، وتأصل هذه الصفة فيها نرى الشاعر يكرر ما يدل على ذلك في الأبيات ثلاث مرات (مُنذُ كانَ الناسُ خاطِبَةٌ)، (مِن أَوَّلِ الدَهرِ)، (جُرحٌ بِآدَمَ يَبكي مِنهُ)، وهذا تركيز شديد في الأسلوب توصلا للمعنى الذي أراده الشاعر، يؤكد ذلك التناسب بين (لم ترمل)، (لم تئم)، وأيضا تكرار حرف النفي (لم)، والطباق بين (يفنى ويبقى) في البيت الثاني؛ مما يؤكد ديمومة تعلق الناس بالدنيا مع ما تكنه لهم من ضرر وأذى.

والتعبير بالمضارع (يبكي) يدل على تجدد البكاء إشارة إلى تجدد إساءات الدنيا، وأنها لا تبرح تنتهي من إساءة إلا وتتبعها أختها؛ مما يدل على شدة عداوتها، وقوة ضررها.

والتعبير بـ (الأَدِم) وهو الجلد مع ما فيه من جناس يؤدي إلى حسن النغم، وجمال الأسلوب، إلا أنني أرى أنه يمكن أن يكون مأخذا على الشاعر هنا؛ حيث يدل على أن إساءات الدنيا إساءات سطحية وظاهرية لا تتعمق لتصيب اللحم والعظم، وهو ما لا يتناسب مع جملة الأوصاف التي ذكرها الشاعر

---

[1] لم ترمل: لم يمت زوجها، لم تئم: لم يكن لها زوج، الأدم: الجلد.

[2] أمير الشعراء أحمد شوقي- نهج البردة، شرح الشيخ سليم البشري، صـ28، نشر: وكالة الصحافة العربية- الجيزة- مصر.

للدنيا؛ مع أن اللحم والعظم يحتويان حرف القافية نفسه (الميم)؛ ولعل الوزن هو الذي اضطره لاختيار الأدم.

وفي الأبيات التالية يكمل الشاعر رسم لوحة التحذير من الدنيا من خلال الوعظ، والتوجه إلى النفس مرة أخرى ناهيا ومحذرا ومخبرا عن سهرها لتنسج للناس خيوط العداوة والهلاك، وهم في غفلة نائمون يغطون في أمانيهم وأحلامهم، وذلك قوله:

لا تَحفَلي بِجَناها أَو جِنايَتِهـا** المَوتُ بِالزَهرِ مِثلُ المَوتِ بِالفَحَمِ
كَم نائِمٍ لا يَراها وَهيَ ساهِـرَةٌ *** لَولا الأَمانِيُّ وَالأَحلامُ لَم يَنَـــــمِ
طَورًا تَمُدُّكَ في نُعمى وَعافــيَةٍ *** وَتارَةً في قَرارِ البُؤسِ وَالوَصَمِ
كَم ضَلَّلَتكَ وَمَن تُحجَب بَصيرَتُــهُ ** إِن يَلقَ صابا يَرِد أَو عَلقَمًا يَسُمِ[1]

وقد ابتدأ الشاعر الأبيات بالنهي (لا تحفلي) والغرض النصح والإرشاد لعدم الفرح والاهتمام والتعلق بالدنيا، فلا فرق بين لذاتها ومصائبها ما دام آخرها الموت.

وقد اشتمل البيت الأول على لونين من ألوان البيان:

الأول: الكناية، وجاءت في موضعين:

- في قوله: (بجناها) كناية عن لذات الدنيا ونعيمها.
- وفي قوله: (جنايتها) كناية عن مصائب الدنيا وشقائها.

وبالغ من روعة الكنايتين هنا اشتمالهما على لونين من ألوان البديع هما: الطباق (جناها-جنايتها)، والجناس بينهما أيضا؛ للتسوية بين نعيم الدنيا وشقائها، فالمتشبع بلذاتها هالك، والمغموس في شقائها هالك أيضا، فالعاقل هو من لا ينخدع بأي منهما.

والثاني: التشبيه في الشطر الثاني (المَوتُ بِالزَهرِ مِثلُ المَوتِ بِالفَحَمِ)، والوجه الاستواء في الهلاك عن طريق الاختناق في الحالين؛ فإن من يموت مختنقا برائحة الأزهار كمن يموت مختنقا بدخان الفحم، وهو على حد قول القائل:

من لم يمت بالسيف مات بغيره *** تنوعت الأسباب والموت واحد

وفصل الشطر الثاني عما قبله لكمال الانقطاع بين الجملتين؛ فالجملة الأولى إنشائية لفظا ومعنى والثانية خبرية لفظا ومعنى، ويمكن أن يفسر الفصل أيضا بالاستئناف البياني؛ حيث أثارت الجملة الأولى سؤالا مفاده: لماذا لا نحفل بجنى الدنيا أو جنايتها؟ فتكون الجملة الثانية هي جواب السؤال، فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن سؤاله، ولا يخفى ما فيه من إيجاز بحذف السؤال، وإغناء السائل عن أن يسأل.

ويتابع الشاعر في البيت التالي حديثه، كاشفا عن شدة عداوة الدنيا وترصدها لأهلها، وسهرها الليالي الطوال تحيك لهم المكائد والمصائب، والناس في سبات عميق، يتعلقون بأمانيها الزائفة، وأحلامها الواهية:

كَم نائِمٍ لا يَراها وَهيَ ساهِـــــــــــرَةٌ *** لَولا الأَمانِيُّ وَالأَحلامُ لَم يَنَمِ

وافتتاح البيت بكم الخبرية لغرض التكثير نَعْيٌ على الناس، وما هم فيه من غفلة، وعدم تيقظ ومعرفة بحقيقة الدنيا، وسهرها للإضرار بهم والقضاء عليهم.

وفي قوله: نائم استعارة بليغة صورت المنخدع بالدنيا المغتر بها وبتقلباتها بصورة النائم الغافل عن هذا الخداع؛ إمعانا في ذمه، وحطا من مكانته.

وجاءت الجملة الحالية (وهي ساهرة) اسمية لإفادة دوام السهر واستمراريته، إثباتا لاستمرار خداع الدنيا، وشدة عداوتها، وأنها لا تالو جهدا ولا تدخر وسعا في سبيل تحقيق ذلك.

---

[1] الوصم: الألم والمرض. الصاب: شجر مر. العلقم: الحنظل. يسم: يرعى.

وقد تأنق الطباق في البيت لإبراز المفارقة بين حالين مختلفين: حال الغفلة التي عليها معظم الناس، وحال اليقظة والسهر التي عليها الدنيا، حيث اكتنف البيت نوعان من أنواع الطباق هما:

الأول: طباق الإيجاب في الشطر الأول بين (نائم، ساهرة)؛ لإبراز هذه المفارقة العجيبة بين الحالين.

الثاني: طباق السلب بين (نائم، لم ينم)؛ لبيان خطأ الناس في تعلقهم بالأحلام الواهمة التي تجعلهم في غفلة عن حقيقة الدنيا الماكرة.

ويبلغ الخداع قمته في البيت التالي الذي يكشف فيه الشاعر حيلة من أمكر حيل الدنيا؛ حيث تتقلب بالإنسان من نعيم إلى شقاء، ومن شقاء إلى نعيم، فلا أمان لها، ولا اطمئنان بها:

طَورًا تَمُدُّكَ في نُعمى وَعافِيَةٍ *** وَتارَةً في قَرارِ البُؤسِ وَالوَصَمِ

وقد اعتمد الشاعر أسلوب المقابلة بين الشطرين؛ لبيان حقيقة الدنيا، وإبراز حالتيها المتناقضتين تماما، فهي تارة تمد الإنسان بالنعم والصحة، وهو ما أبرزه طرف المقابلة الأول، وتارة تقذف به في متاهات الفقر والمرض، وهو ما وضحه طرف المقابلة الثاني.

وفي البيت الأخير يكشف الشاعر حقيقة التضليل والزيف التي تنطوي عليه الدنيا، وأنها لشدة مكرها وخداعها وتلونها تحجب أنظار الكثيرين عن الوقوف على حقيقتها، فينجرفون في متاهات الذل والهوان:

كَم ضَلَّلَتكَ وَمَن تُحجَب بَصيرَتُهُ *** إِن يَلقَ صابا يَرِد أَو عَلقَمًا يَسُمِ

والتعبير بكم الخبرية يفيد كثرة التضليل والزيف الواقع من الدنيا بالإنسان، وتواصل الخداع والعداوة، وصولا إلى حجب بصيرته عن الحقيقة، والرمي به في متاهات القهر والفقر، وهما النتيجة الحتمية لحجب البصيرة والتضليل التي تعمل عليهما الدنيا ليل نهار.

وبين (الصاب)، وهو شجر مر، و(العلقم): الحنظل تناسب يكشف حجم المعاناة التي يمنى بها من يغتر بالدنيا، ويتعلق بها وبأحلامها وآمالها الزائفة.

وبمعاودة التأمل في هذه الأبيات الأربعة نلحظ تكرار الاستعارة المكنية وتأنقها في كل بيت من هذه الأبيات، والمستعار له فيها واحد وهو الدنيا؛ حيث صورها بإنسان يملك في البيت الأول النعيم والشقاء، ويقدر على منحهما لمن يشاء، وفي البيت الثاني ساهرة تخطط وتبدع في تنويع طرق الخداع والمكر، وفي البيت الثالث تمد بالنعمى والعافية، وبالفقر والمرض، وفي البيت الأخير تضلل وتخدع، وتعداد هذه الاستعارات يكشف تنوع الحيل التي يريد أن يبرزها الشاعر في كشفه لحقيقة الدنيا واضحة جلية حتى يحذرها الناس ولا ينخدعون بها، كما يدل أيضا شاعرية شوقي وتمكنه حيث ينوع في استعاراته لتتضافر كلها على إثبات شيء واحد، وهو كشف حقيقة الدنيا؛ ليتأتى له ما أراد وهو المبالغة في التحذير منها.

وبعد أن كشف شوقي حقيقة الدنيا، ومظاهر خداعها وتلونها، يرجع إلى نفسه ناعيا لها، ناقما عليها هذا الزمن الطويل الذي استغرقته في المعاصي والمغريات، ولم يكتشف ذلك إلا مؤخرا بعد أن شاب رأسه، وصحيفته ممتلئة بالأعمال السيئة، فنراه يقول:

يا وَيلَتاهُ لِنَفسي راعَها وَدَهـــــا *** مُسوَدَّةُ الصُحفِ في مُبيَضَّةِ اللَمَمِ

رَكَضتُها في مَرِيعِ المَعصِياتِ وَما *** أَخَذتُ مِن حِميَةِ الطاعاتِ لِلتُخَـمِ

هامَت عَلى أَثَرِ اللَذّاتِ تَطلُبُهـــــا *** وَالنَفسُ إِن يَدعُها داعي الصِبا تَهِـمِ [1]

والشاعر هنا لشدة مصابه ينادي الويل، واستصحابه لنفسه مضيفا إياها لضمير الشاعر (لنفسي)؛ ليبرز للمتلقي مدى الحسرة والفجيعة التي أصابته حين نظر إلى نفسه فوجد أن العمر قد مر دون أن

---

[1] دهى: دهاها وأصابها. اللمم: الشعر المجاور لشحمة الأذن. ركضتها: أرسلتها مسرعة. مريع: خصيب. التخم: جمع تخمة، وهي داء يصيب الإنسان لكثرة الطعام الذي يأكله.

يقدم شيئا ينفعه، وأن صحيفته مسودة بالآثام والذنوب، فيعيش حالة من الأسى والحزن الشديد، ويصور حالة الانكسار التي مني بها الشاعر، والتي تتناسب تماما مع الدخول إلى الغرض الأصلي من القصيدة (مدح النبي-ﷺ)؛ فإن دخول النفس إلى رحاب الله-سبحانه وتعالى-، ورسوله ﷺ وهي منكسرة مستشعرة للذنب، خاضعة متذللة أدعى لقبولها، ومحو آثامها.

ولم يكتف الشاعر بفعل واحد للدلالة على الصدمة التي مني بها عندما رأي الشيب قد بلغ منه مبلغه دون أن يقدم شيئا ينفعه، وإنما جاء بفعلين يدلان على المعنى نفسه (راعها ودها) أي: دهاها، لتأكيد شدة الفزع الذي أصابه وأقضَّ مضجعه؛ مما جعله يستغيث وينادي الويل مستنجدا متلهفا للخلاص والإصلاح الذي بيَّنه بعد ذلك.

وفي الشطر الثاني من البيت الأول (مُسوَدَّةُ الصُحفِ في مُبيَضَّةِ اللَمَمِ) تلعب الكناية دورا رائدا في كشف سبب الفجيعة التي أحاطت بالشاعر، حيث العمر قد مضى والصحف مكتظة بالأعمال السيئة، فقد اشتمل هذا الشطر على كنايتين: مسودة الصحف كناية عن الأعمال السيئة، مبيضة اللمم كناية عن الشيب ودنو الأجل، وهذا هو مبعث الأسى والحزن الذي ألم بالشاعر، حيث أوقفنا من خلال هاتين الكنايتين على الدليل الواضح على مبعث حزنه وشدة ألمه؛ لنعيش معه هذه الحالة النفسية المؤلمة، وينظر كل إنسان منا إلى نفسه فلا ينخدع بمغريات الدنيا، فالكناية كما يقول البلاغيون: كدعوى الشيء ببينة وبرهان[1].

وتآزر الطباق بين (مسودة ومبيضة) مع الكناية؛ لإبراز مدى التناقض والتباعد بين الحالتين، وفصل الشطر الثاني عما قبله للاستئناف البياني؛ حيث جاء بمنزلة الجواب عن السؤال الذي أثاره الشطر الأول، وكأن سائلا سأله عن سبب حزنه وفجيعته، فجاء الشطر الثاني كالجواب عن هذا السؤال.

وفي البيتين التاليين يسترسل الشاعر في الإنكار على نفسه، وتركها هملا للمعصيات والذنوب دون أن يلجمها بلجام التقوى والخوف من الله حتى اسودت صحيفته بالأعمال السيئة، مبينا أن هذه هي طبيعة النفس حين تنساق-دون تفكير-وراء الملهيات والمغريات:

رَكَضتُها في مَرِيعِ المَعصِياتِ وَما *** أَخَذتُ مِن حِميَةِ الطاعاتِ لِلتُخَمِ

هامَت عَلى أَثَرِ اللَذّاتِ تَطلُبُهـــــا *** وَالنَفسُ إِن يَدعُها داعي الصِبا تَهِمِ

وتلعب الاستعارة المكنية دورا فاعلا في كشف المعنى في البيتين؛ حيث يشبه النفس في اتباعها للمعاصي، وغوصها في بحر الذنوب بالدابة التي تنطلق في المرعى دون وازع أوراع يتحكم فيها، فتسرح في المرعى أنى شاءت راكضة مخربة، وتتداخل مع هذه الاستعارة استعارة أخرى وذلك أن جعل للمَعصِيات مرعى (مريع المَعصيات)، وفي هذا تكثيف للخيال يؤدي إلى تأكيد المعنى، وإثبات أسى الشاعر وحزنه الشديد لما آلت إليه حاله.

وتختم الأبيات بتذييل غاية في الروعة (وَالنَفسُ إِن يَدعُها داعي الصِبا تَهِمِ)، وهو تذييل يجري مجرى المثل، وكأن الشاعر قد أتى به ليخفف وطأة الحزن والأسى على نفسه بأن هذه هي طبيعة النفس حين تترك أسيرة لشهواتها وملذاتها، فهو ليس بدعا في هذا، وهذا يدل على خبرته بالحياة.

وفي نهاية حديث الشاعر عن الدنيا، وما تفعله من إغراءات بأهلها، وإغواء لنفوسهم يختم بجملة من النصائح والتوجيهات؛ لاتقاء شر الدنيا، وكبح جماح النفس البشرية التي تحتاج دائما إلى التعهد والتقويم، وكأن الشاعر بهذه التوجيهات يخرجنا من هذا النفق المظلم الذي عايشناه معه في الأبيات السابقة حين نعى نفسه وما هي فيه من معاصي وذنوب، وهذا دأب الشعراء الكبار لا يتركون متلقيهم

---

[1] ينظر: شروح التلخيص (275/1)، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق، ط1، 1323هـ.

في سراديب الضياع والذنوب، وإنما يأخذون بأيديهم نحو الضياء والنور، وتلمس طريق الهداية، حيث يقول:

صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُـــــهُ *** فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِــــمِ
وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ *** وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ
تَطغى إِذا مُكِّنَت مِن لَذَّةٍ وَهَوًى *** طَغيَ الجِيادِ إِذا عَضَّت عَلى الشُكُمِ
إِن جَلَّ ذَنبي عَنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ *** في اللَهِ يَجعَلُني في خَيرِ مُعتَصِمِ
أُلقي رَجائي إِذا عَزَّ المُجيرُ عَلى *** مُفَرِّجِ الكَرَبِ في الدارَينِ وَالغَمَمِ
إِذا خَفَضتُ جَناحَ الذُلِّ أَسأَلُهُ *** عِزَّ الشَفاعَةِ لَم أَسأَل سِوى أَمَـــــمِ
وَإِن تَقَدَّمَ ذو تَقوى بِصالِحَـــــةٍ *** قَدَّمـــــتُ بَينَ يَدَيهِ عَبرَةَ النَدَمِ[1]

وفي هذه الأبيات تمتزج الأساليب الإنشائية بالأساليب الخبرية تمازجا معجبا؛ ليختلط التحفيز والتشجيع على تعهد النفس بالتقويم، وعدم تركها لهواها-ويتناسب معه الأسلوب الإنشائي- بالحقائق الكثيرة المسلَّمة عن النفس، وحقيقتها الأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي-ويتناسب معه الأساليب الخبرية-؛ آملا أن يلقى ذلك صدى لدى المتلقي فيرجع عن غيه، ويظل على حذر دائم من الدنيا وفتنتها.

وهو في سبيل تحقيق ذلك يتخير الألفاظ والتراكيب والصور التي تحقق مبتغاه، فتبدأ الأبيات بهذه الجملة الخبرية (صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُـــــهُ)، وهي جملة تحمل نبراس الهداية للنفوس التي تنشد الصلاح، وأنه يكمن في حسن الخلق، وتقديم الجار والمجرور (للأخلاق) قصر يفيد حصر الصلاح في حسن الخلق، وأنه هو السبيل الوحيد لذلك، حثا على الالتزام بالأخلاق الفاضلة والتأكيد عليها، ولم يكتف شوقي بهذه الجملة الخبرية، وإنما تبعها بجملة إنشائية تدور في فلكها، وتحمل المعنى نفسه التي دلت عليه سابقتها (فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِــــمِ)، تأكيدا لأهمية الأخلاق، وضرورة الالتزام بها للسير على طريق الاستقامة والرشاد، وقد دأب شاعرنا على تأكيد معانيه من خلال إيرادها في صورتين أو أكثر- استعارتين مثلا-، أو أسلوبين مختلفين-كما هنا- لتوثيق هذه المعاني، وإقناع المتلقي بها؛ مما يدل على سعة مخزونه اللغوي، وبراعته في استنطاق الصور، وسعة خياله.

ولنا أن نتأمل الأمر (قوّم) وما فيه من شدة وقوة تصور النفس ناقة شرودا، أو فرسا جامحا يحتاج إلى تعهد وقوة لترويضها وتذليلها لتسير على جادة طريق الاستقامة، وهي كما نرى استعارة في غاية الروعة.

ولتأكيد دور الأخلاق في الصلاح والاستقامة يحرص الشاعر على تكرارها في الشطرين، وهو أيضا إظهار في موطن الإضمار لتأكيد أهمية الأخلاق، وإثبات أنها الطريق الأوحد للصلاح، وأيضا لتظل اللفظة مركوزة في ذهن المتلقي فلا يغفل عنها.

ولا شك أن هذا التكرار يزيد التأكيد والحث علي التزام المكرر (حسن الخلق) ويرسخه في الأذهان، فلا يخفي دور التكرار في تثبيت المعاني لأن الشيء " المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار، وانتهي بتصديق المكرر، إذ أن الشيء إذا تكرر رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة"[2]، كما أن التكرار- كما يقول أستاذنا الدكتور/ إبراهيم الخولي: "وسيلة بيانية لها خطرها بين وسائل البيان، ولها قيمتها الفنية"[3]، فكان التكرار هنا متناسبا مع مقام النصح والإرشاد.

وكما كرر الشاعر الأخلاق في البيت تأكيدا لأهميتها، يكرر في البيت التالي كلمة النفس للغرض نفسه، وهو التأكيد على أن النفس هي المنوط بها سعادة الإنسان أو شقاءه،

---

(1) الشكم: جمع شكيمة وهي حديدة توضع في فم الفرس للتحكم فيه. أمم: يسير

(2) روح الاجتماع د/جوستاف لوبون ص139، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، نشر: توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية- مصر، ط2.

(3) التكرار بلاغة. د/ إبراهيم الخولي، صـ27، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1993م.

وذلك قوله:

وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ *** وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ

وقد أبرز الشاعر معناه هنا معتمدا على أسلوب المقابلة بين الشطرين في لوحتين مختلفتين للنفس في حالتيها: الخيرة والشريرة، والجزاء المترتب على كل منهما، فالنفس الخيّرة جزاؤها الخير والعافية، والنفس الشريرة عقابها الردى والهلاك، فالجزاء من جنس العمل.

ووصل الشاعر بين الجملتين للتوسط بين الكمالين حتى يتمكن من إبراز أثر النفس من خلال عقد موازنة بين الحالتين؛ ليتأكد دورها في جلب السعادة أو الشقاء، وقدم الحديث عن النفس الخيّرة ترغيبا.

ويسترسل الشاعر في حديثه عن النفس، والتحذير من تمكنها وطغيانها قائلا:

تَطغى إذا مُكِّنَت مِن لَذَّةٍ وَهَوًى *** طَغيَ الجِيادِ إذا عَضَّت عَلى الشُكُمِ

وقد سيطر التشبيه المركب على البيت كله؛ حيث شبه حالة النفس حين يتمكن فيها الهوى، وتتحكم فيها الملذات، فيصعب السيطرة عليها بحالة الفرس الجامحة الثائرة التي عضت على الشكيمة، فلم يعد يؤثر اللجام عليها، فيصعب التحكم فيها، وهي صورة معهودة لدى العرب أتي بها الشاعر لإبراز هذه الحقيقة وتأكيدها.

وبالغ من روعة هذه الصورة العكس الذي اشتمل عليه الكلام في الشطر الأول من البيت؛ حين جعل الشاعر النفس هي التي تتمكن من اللذة والهوى، مع أن المعروف أن اللذة والهوى هما اللذان يتحكمان في النفس ويحكمان قيادها، وهذا يدل على قوة تأثرها بهما حتى أصبحت هي المتحكمة المسيطرة.

والتعبير بالمضارع (تطغى) يدل على تجدد الطغيان منها كلما تمكنت من اللذة والهوى، ساعده استعمال أداة الشرط (إذا) التي تأتي عند تيقن حدوث ما بعدها، والتأكيد بالمفعول المطلق (طغي)؛ لإبراز حقيقة النفس وتأكيدها.

وبعد هذا البيان الشافي الكافي لحقيقة النفس والتحذير منها، يدلف إلى غرضه الأصلي في القصيدة ملتجأ إلى الله تعالى ورسوله طالبا العفو والغفران، مبديا الندم على ما قدم في أبيات يبدؤها بقوله:

إن جَلَّ ذَنبي عَنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ *** في اللهِ يَجعَلُني في خَيرِ مُعتَصِمِ

أَلقى رَجائي إذا عَزَّ المُجيرُ عَلى *** مُفَرِّجِ الكَرَبِ في الدارَينِ وَالغَمَمِ

إذا خَفَضتُ جَناحَ الذُلِّ أَسأَلُهُ *** عِزَّ الشَفاعَةِ لَم أَسأَل سِوى أُمَـــــمِ

وَإن تَقَدَّمَ ذو تَقوى بِصالِحَـــــةٍ *** قَدَّمـــــتُ بَينَ يَدَيهِ عَبرَةَ النَدَمِ

وهي ليست موضوع حديثنا في هذا البحث.

وبمعاودة التأمل في هذه الأبيات من أولها التي ذكرها شوقي في هذه القصيدة يدرك المتلقي براعة شوقي في جوانب كثيرة في هذه اللوحة التحذيرية من الدنيا ومغرياتها، ولعل أول ما يلفت النظر هو حسن التخلص في بداية الأبيات وفي نهايتها: ففي البداية تخلص تخلصا بارعا من معاناته مع المحبوبة، وصعوبة الوصول إليها، وتمنعها عليه، وهنا كان لابد من أن يقف مع نفسه ويحذرها من الدنيا بعد أن رأى أنها قد فتنته ولعبت به.

وفي النهاية تخلص كذلك في يسر وسهولة من بيان حقيقة الدنيا وما تفعله بالنفوس التي تتبع شهواتها وملذاتها، فتدخلها في مجاهيل الضياع والظلام، ويصعب السيطرة عليها، ووقتئذ يكون الملاذ والملجأ إلى الله تعالى ورسوله ﷺ فهما طوق النجاة، وهذا ما فعله شاعرنا فجعلنا ننتقل من غرض إلى غرض دون أن نشعر بفجوة بين هذه الأغراض، حيث يسلمنا السابق للاحق في سهولة ويسر.

لحظنا كذلك هذا التنويع في الأساليب والصور التي استعملها الشاعر في التحذير من الدنيا، فرأينا أسلوب الطباق والمقابلة يتكرران في الأبيات بوضوح، كذلك تكرر التشبيه بأقسامه المتعددة؛ لإبراز المعنى، كما بدا واضحا دور الاستعارة بألوانها المتعددة-خاصة الاستعارة المكنية- وتكرارها وتكثيفها

وامتدادها مع الأبيات من أولها إلى نهايتها لرسم صورة واضحة للدنيا، فرأينا الدنيا عاقلة تخفي كل مبكية، وتبدي الابتسام مع أنها تخفي الحقد والكراهية، ورأيناها إنسانا يضحك لينطلي زيفه على الآخرين، ورأيناها امرأة مخطوبة مطلوبة على مر الوقت لم ترمل ولم تئم، ورأينا إساءاتها تبقي وتمتد على مر العصور من لدن آدم-عليه السلام-، إلى غير ذلك من الصور الرائعة التي نقلتها لنا الاستعارة في الأبيات من أولها إلى نهايتها، فكان لها الدور الرئيس في إبراز المعنى الذي أراده الشاعر.

كما ظهر أيضا أن الشاعر في غالب معانيه لم يكتف بإيراد صورة واحدة أو أسلوب واحد لكشف المعنى، وإنما يتعاور على المعنى صورتان أو أكثر أو أسلوبان مختلفان لتأكيد المعنى نفسه؛ مما يدل على امتلاء نفس الشاعر بالمعنى وإصراره على أن يصل إلى المتلقي كاملا.

كما بدا واضحا أيضا استعمال أسلوب التكرار-على مستوى المفردات- حين تسيطر على الشاعر الفكرة، فيلجأ إلى تكرار اللفظة الأم لهذه الفكرة ويلح عليها؛ لترتكز في نفس المتلقي فيثبت المعنى الذي أراده الشاعر.

كما استعمل الشاعر أيضا بعض الألوان البلاغية المختلفة كالفصل والوصل، والقصر، والتقديم وغيرها، كل ذلك في براعة لافتة، وبلاغة رائقة.

المبحث الثاني
بلاغة شوقي في التحذير من الدنيا في قصيدة ذكرى المولد النبوي

يقول شوقي:

أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى *** "تُبَدِّلُ كُلَّ آونَةٍ إِهابـــــا
وَأَنَّ الرُقطَ أَيقَظُ هاجِعاتٍ *** وَأَترَعُ في ظِلالِ السِلمِ نابا
وَمِن عَجَبٍ تُشَيِّبُ عاشِقيها *** وَتُفنيهِمْ وَما بَرِحَتْ كَعابا
فَمَن يَغتَرُّ بِالدُنيا فَإِنّـــــي *** لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثِيابا
لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابى
جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شَهدًا وَصابا
فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكمًـــا *** وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابـــا
وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إِلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا
وَلا كَرَّمتُ إِلا وَجهَ حُـــرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَهُ المِنَنَ الرَغابـــا
وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابـا
فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنهـــا *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابا
وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخـــرًا *** وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابـا
فَلَو طالَعتَ أَحداثَ اللَيالي *** وَجَدتَ الفَقرَ أَقرَبَها انتِيابـا
وَأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَيـــاةٍ *** وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابـــا
وَأَنَّ الشَرَّ يَصدَعُ فاعِليـــهِ *** وَلَم أَرَ خَيِّرًا بِالشَرِّ آبـــا[1]

المعنى العام للأبيات:

بعد أن ذكر الشاعر في مطلع القصيدة معاناته مع الجمال الذي أفقده صوابه، مما جعل قلبه يتحمل ألما لم تستطع تحمله قلوب أخرى وإن خلقت من حديد، وبعد هذه المعاناة مع آثار الجمال انتقل الشاعر- في هذه الأبيات- لإبراز حنكته وتجربته في أمور الحياة، مبينا تمرسه بتقلباتها، محذرا من الدنيا وتبدلها، مبرزا ما تفعله بالأحياء من أفاعيل تشيبهم وتفتك بهم، وتظل هي شابا لا تتأثر بمرور الزمن، ثم يلبس الشاعر ثوب الناصح الخبير بالدنيا بعد أن ذاق منها كؤوس الذل والضرر، ليخلص في النهاية إلى أن الاقتناع بحكم الله والالتجاء إلى بابه هو الطريق الأوحد للنجاة والبر، ليصل بعد ذلك إلى غرضه الأساس الذي هو مدح الرسول ﷺ.

التحليل البلاغي:

يستهل الشاعر أبياته بالنداء (أخا الدنيا) حيث ينادي كل من تعلقت قلوبهم بالدنيا، نداء يحمل صرخة قوية لكل من يتصف بهذه الصفة (التعلق بالدنيا)، حاذفا حرف النداء ليبادر إلى مطلوبه وهو التحذير من الدنيا وتقلباتها، وجمَّل هذا النداء ما يحمله التركيب من كناية اللزوم وشدة التعلق بالدنيا، وهي كناية رائعة تصور هذا المغتر بالدنيا اللاهي في ملذاتها، يأمن جانبها ويركن لها بالأخ الملازم لأخيه لا يبرحه.

وبعد هذا النداء الذي يحمل النصح والإرشاد يدلف الشاعر مباشرة إلى معناه المراد، ببيان حقيقة الدنيا، والتحذير منها:

أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى *** تُبَدِّلُ كُلَّ آونَةٍ إِهابـــــا
وَأَنَّ الرُقطَ أَيقَظُ هاجِعاتٍ *** وَأَترَعُ في ظِلالِ السِلمِ نابا [2]

---

[1] ديوان شوقي:606/1.

[2] الرقط: جمع رقطاء وهي الحية يخالط سواد جلدها بياض، أترع: أشد وأفتك.

والتعبير بصيغة الرؤية (أرى) وهي أقوى أنواع الإدراك تأكيد لشدة عداوة الدنيا وكيدها لأهلها، وإضافة الدنيا إلى ضمير المخاطب دون أن يأتي الكلام على العموم كأن يقال: أرى الدنيا أفعى إشارة بأن لكل متعلِّق بالدنيا دنيا خاصة به، تتلون له حسب ما تدرك من ميوله تلونا يخدعه بها؛ مما يدل على شدة خبثها ومكرها.

والتركيب (أرى دنياك أفعى) تشبيه بليغ يؤكد عداوة الدنيا وتربصها بصاحبها وشدة فتكها، وبالغ من شدة عداوتها تقييد المشبه به (الأفعى) بعدة قيود هي:

- أنها تبدل كل آونة إهابا؛ مما يدل على شدة خبثها؛ حيث تتلون لكل إنسان حسب ما يغريه ويوقعه في شراكها، فهي ليست ثابتة على حال واحدة، وإنما لها حيل متعددة وأساليب متنوعة تستطيع من خلالها إغواء الإنسان وإغراءه.
- أنها نوع خاص من الأفاعي (الرُّقط) أي التي يخالط سواد جلدها بياض، وهي أخبث أنواع الأفاعي، وأشدها فتكا.
- أنها في وقت السلم أشد إيلاما وفتكا منها في وقت العداوة (وَأَترَعُ في ظِلالِ السِلمِ نابا)؛ مما يدل على شدة خبثها، وأنها لا أمان لها، فهي تسالم لتقتل، وتضاحك لتفتك.

وكل هذه القيود تشير إلى أنها ليست أفعى عادية، وإنما هي أفعى تمتلك من الأساليب والحيل ما يمكنها من فريستها، ويوقعها في شراكها فتقضي عليها؛ لذلك نرى الشاعر يتعجب في البيت التالي من أنها تمتلك الحيل والألاعيب التي تتمكن بها من القضاء على فرائسها، وتظل هي قوية شابة رغم مرور الزمن، حيث يقول:

وَمِن عَجَبٍ تُشَيِّبُ عاشِقِيها *** وَتُفنيهِمْ وَما بَرِحَتْ كَعابا[1]

ولم يكتف الشاعر ببيان أن الدنيا تشيب عشاقها بكثرة ما توقعه عليهم من إغراءات وابتلاءات، وإنما عطف عليه الإفناء (وتفنيهم) ليظهر استمراريتها وتعهدها لفرائسها حتى تقضي عليهم قضاء لا رجعة معه، فهي لا تكتفي بالشيب والدمار وإبقائهم أحياء؛ مما يبالغ في ذمها وضرورة الحذر منها، وقد جاء الفعلان (تشيب وتفني) مضارعان دلالة على تجدد هذين الفعلين منها لبني البشر، كما أنهما ينقلان لنا هذه الأحداث التي تفعلها الدنيا بعشاقها دمارا وإفناء وكأننا نشاهدهم عيانا بيانا، فصيغة المضارع- كما يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى-:" أقدر الصيغ على تصوير الأحداث؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها، وكأن العين تراها وهي تقع، ولهذا الفعل مواقع جاذبة في كثير من الأساليب حين يقصد به إلى ذلك، وترى المتكلمين من ذوي الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها، وتقريرها في خيال السامع"[2].

وقد لعب التناسب بين الشيب والفناء، والطباق بين (تشيّب وكعابا) دورا بارزا في بيان مثار تعجب الشاعر، حيث تفعل الدنيا كل هذه الأفعال بعشاقها دون أن تتأثر أو ينالها أي شيء مما تفعله؛ مما يبالغ في ذمها والحذر منها، ساعده التعبير بالوصف (عشاقها) فهي لا تفعل ذلك إلا بمن يفتتن بها ويركن إليها، ويجعلها كل همه.

أيضا ساعدت الاستعارة الممتدة على طول البيت في إبراز المعنى وتأكيده، حيث صورت الدنيا فتاة شابة تملك الإهلاك والإفناء دون أن تتأثر.

وبعد هذا البيان الواضح لحقيقة الدنيا ينتقل الشاعر لبيان خبرته بحقيقتها، وأن هذه الأوصاف التي ذكرها لها في الأبيات السابقة هي نتيجة خبرة ومراس طويل، وقد ذاق منها ألوانا مختلفة من الضر والأذى، فكلامه عنها وتحذيره منها تحذير مجرب خبير بها وبإغراءاتها،

---

[1] كعاب: الفتاة ناهدة الثديين دليل الشباب والحيوية.

[2] خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، صـ269/268، مكتبة وهبة، ط7.

وذلك قوله:

فَمَن يَغتَرُّ بِالدُنيا فَإِنّـــــــي *** لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثِيابـــــا

لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابى

جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شَهدًا وَصابا

وإيراد هذه الأبيات بعد حديثه عن الدنيا وحقيقتها انتقال في غاية الروعة؛ حيث يبرز أمل الشاعر في أن يلقى تحذيره من الدنيا صداه حين يكون هذا التحذير صادرا عن مجرب مكوي بنيران الدنيا، فهو يعاني مرارة كيدها وعداوتها؛ ولذلك لم تعد تغريه وتلعب به، فيعقد في البيت الأول مقارنة بينه وبين من يغتر بالدنيا، ولا شك أن هذه المقارنة تظهر الفرق الشاسع بينه وبين غيره ممن ينخدعون بالدنيا وتلونها؛ لإثبات خطئهم وما هم فيه من ضلال وزيف سوف يكتوون بناره عما قريب.

وقوله: (فَإِنّي لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثِيابا) كناية عن خبرته بالدنيا وعدم انخداعه بها مهما أظهرت له من مودة وإغراء، والكناية هنا تزيد عما لو قال: فمن يغتر بالدنيا فإني لا أغتر بها، حيث دلت الكناية على المعنى-عدم الاغترار بالدنيا- مقرونا ببرهانه مشفوعا بدليله، وهو أنه قد ذاق منها الويلات، فتأكد له عداوتها؛ ولذلك لم يعد يغتر بها، ولا شك أن إيراد المعنى ومعه دليله أقوى من إيراد بغير دليل.

ويستطرد الشاعر في البيتين التاليين مُظهرا خبرته ومعرفته التامة بحقيقة الدنيا، مؤكدا ما سبق أن بينه في البيت السابق:

لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابى

جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شُهدًا وَصابا[1]

ويتعانق في البيت الأول لونان من ألوان البيان لتصوير خبرة الشاعر بحقيقة الدنيا هما:

الأول: التشبيه في قوله: (لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ) تشبيه يكشف حقيقة الدنيا وخداعها، حيث شبه ضحكها لمن يغتر بها بضحك المغنية إلى غبي لتنال منه، وهو لغبائه يظن أنها تضحك معجبة به.

الثاني: الكناية في قوله: (وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابى) كناية عن خبرته بالدنيا، ومعرفته بحقيقتها، وشدة حذره منها، واطلاعه عما تضمره من عداوة.

وزين هذان اللونان المقابلة بين شطري البيت (لها ولي- ضحك القيان وضحك اللبيب- غبي ومتغابي) لإبراز الفرق بين الضحكين؛ مما يؤكد خبرته بها وشدة حذره منها.

ويمتد خيط التحذير في البيت الأخير في هذا الأسلوب الخبري الملائم لمراد الشاعر، وهو الكشف عن خبرته بالدنيا؛ مما يجعله يحذَرها ويحذِّر منها فيخبر أنه قد لاقى منها ألوانا من النعيم وكذلك ألوانا من الشقاء والبؤس، وأنها قد تقلبت عليه بحلوها ومرها؛ مما جعله خبيرا بها ملما بجميع أحوالها:

جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شُهدًا وَصابا

وقد تأنقت الاستعارة في البيت لإبراز المعنى الذي أراده الشاعر حيث وردت في موضعين:

الأول: قوله: (جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا) حيث صور الدنيا حديقة غناء تشمل أنواع الزروع المختلفة النافع منها والضار، وقد جربها جميعا.

الثاني: قوله: (وَذُقتُ بِكَأسِها شُهدًا وَصابا) تصويرا لها بالمائدة ذات الكؤوس المتنوعة، منها ما بداخله الشراب الطيب حلو المذاق، ومنها ما يحمل المرَّ الكريه المذاق، وقد ذاقها جميعا أيضا.

وبالتأمل تبدو لنا براعة شوقي-كعادته- في إيراد لونين من ألوان البيان أو صورتين للون واحد يتكاتفان لتأكيد المعنى نفسه كما هنا.

---

[1] القيان: جمع قينة وهي الأمة المغنية. الشهد: العسل. الصاب: عصارة شجر مر، وقيل هو شجر إذا اعتصر خرج منه كهيئة اللبن.

وتآزر مع الاستعارة في تأكيد المعنى الطباق بين الورد والشوك في الشطر الأول، وبين الشهد والصاب في الشطر الثاني لتأكيد خبرة الشاعر بالدنيا، ومعرفته بحقيقتها.

وتتأكد براعة شوقي ودقته في تقديم الورد على الشوك، والشهد على الصاب تناسبا مع أحوال الدنيا، وكشف حقيقتها فهي في البداية تتزين للإنسان وتغريه بملذاتها حتى يقع فريسة لها، وعندما يسلم لها قياده تتوالى عليه سياطها الحامية؛ مما يؤكد غدرها وعداوتها، ويوجب الحذر منها.

وقد زاد الطباق المعنى قوة، وكسا السياق حسنا وجمالا، مما يظهر أهميته في الكلام، ودوره في تأكيد المعاني.

وبعد أن كشف لنا شوقي حقيقة الدنيا، ونقل لنا عصارة تجاربه معها، وحذر من مكرها وخداعها، انتقل-كعادته- يوضح طريق النجاة ليكون الإنسان في مأمن من مكرها وخداعها، هذا الطريق يتمثل في اللجوء إلى الله-تعالى- ولزوم بابه، وتعلم العلم الصحيح الذي ينأى بصاحبه عن ملذات الدنيا ويقف به على حقيقتها، فلا تستطيع خداعه، وهذا ما عليه الشاعر، وذلك قوله:

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكمًـــا *** وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابـــا
وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا
وَلا كَرَّمتُ إلا وَجهَ حُـــرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَهُ المِنَنَ الرَغابـــا[1]

والأبيات يسيطر عليها الطابع الخبري لتنقل لنا الحقائق التي يتمثلها الشاعر ويلتزم بها فهي طريق النجاة بعد أن خبر الدنيا، وتحققت لديه عداوتها.

وقد لعب أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء دورا بارزا في تأكيد المعاني التي أرادها الشاعر وشمل الأبيات جميعها، فاشتمل البيت الأول على موضعين للقصر هما:

الأول: قصر الحكم الصحيح الذي فيه الهدى والصلاح والنجاة من عداوة الدنيا على حكم الله تعالى دون غيره (فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكمًا).

الثاني: قصر الباب أو الطريق الصحيح الذي يتوجب على من ينشد النجاة من الدنيا أن يسلكه على باب الله تعالى دون غيره (وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابا).

وتآزر مع القصر في تأكيد المعنى التكرار، حيث تكرر النفي (لم أر) ولفظ الجلالة (الله)، والحكم والباب، وأيضا التكرار المعنوى بين غير ودون لتأكيد الالتزام بحكم الله تعالى، والسير في الطريق الموصل إليه دون غيره، فهو سبحانه الملاذ الآمن الذي يأمن فيه من يلجأ إليه.

ويتوالى القصر عن طريق النفي والاستثناء في البيتين التاليين أيضا لتأكيد المعاني التي أرادها الشاعر:

وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا
وَلا كَرَّمتُ إلا وَجهَ حُـــرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَـــهُ المِنَنَ الرَغابا

فهو لا يعظِّم إلا صحيح العلم والأدب الخالص، ولا يكرم إلا الأحرار أصحاب الفضل، الكرام مع أقوامهم دون غيرهم.

وتكرار أداة النفي (لا) في البيتين تأكيد على التزام الشاعر وتمسكه بهذه الفضائل، آملا أن يحذو المتلقي حذوه، ولا ينجرف مع تيارات الدنيا المهلكة.

وبعد أن وجه الشاعر هذه النصائح كخبير بالدنيا، مجرب لها، وإمعانا في التحذير منها يعود مرة أخرى في الأبيات التالية ويختم بجملة أخرى من النصائح التي تؤكد قوة التحذير منها متحدثا عن المال وفتنته وشهوة جمعه فهو الطريق التي تعبر منه الدنيا للإنسان حتى تتملكه،

---

[1] اللباب: الخالص. المنن الرغاب: المنح المرغوبة المحببة إلى النفوس.

وتهلكه:

وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابا
فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنهـــا *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابا
وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخــرًا *** وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَــهُ احتِسابا

والأبيات تتنوع فيها الأساليب الخبرية والأساليب الإنشائية لنقل مراد الشاعر منها على أكمل صورة، حيث يقرر في البيت الأول في أسلوب خبري خطورة جمع المال، وأنه الداء الذي يهلك صاحبه ويورده المهالك، وكذلك البخل الناتج عن حب المال والشغف باكتنازه.

وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابا

ووصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى.

ثم يواصل الشاعر حديثه في البيتين التاليين بنصائح تؤكد ما سبق أن قرره في هذا البيت في أسلوب إنشائي مبينا خطورة جمع المال والبخل به:

فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنها *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابا
وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخرًا *** وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابا

وبالتأمل يتضح قوة ارتباط هاتين البيتين بالبيت السابق، حيث إن البيت الأول منهما يتصل بالشطر الأول من البيت السابق، والبيت الثاني يرتبط بالشطر الثاني منه، وكأنهما تفسير وتأكيد للتحذير الذي ذكره الشاعر في البيت السابق، وفي ذلك إشباع للفكرة، وتأكيد للمعنى الذي أراده وهو بيان خطورة جمع المال وخطورة البخل.

وقد اشتمل البيتان على جملة من الأساليب والألوان البلاغية التي ساعدت على إبراز المعنى وتأكيده، منها:

- أسلوبي النهي والأمر في مطلع البيت الأول (فلا تقتلك شهوته وزنها) بغرض النصح والإرشاد، وإيثار التعبير بصيغة القتل (تقتلك) دون أن يقال: تغرك مثلا تأكيد للتحذير من فتنة المال، وتقوية للنصح والإرشاد المتضمنين في الأمر والنهي.

- الاستعارة في قوله: (فلا تقتلك شهوته) حيث صور حب المال والافتتان به بسيف بتار يقضي على العدو ويقتله، ويمكن إجراؤه على المجاز العقلي لعلاقة السببية، حيث أسند القتل إلى سببه وهو حب المال، مبالغة في قوة هذا السبب، وتقوية للتحذير منه.

- التشبيه في قوله: (وَزِنها كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشرابا) لبيان أن الواجب على الإنسان الاعتدال في نظرته للمال، وتملكه له مثلما يعتدل في طعامه وشرابه، حيث الكثير منه مضر مهلك.

- الأمر المتوالي في البيت الثاني (وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخرًا، وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابا) نصحا وتوجيها ببيان كيفية التعامل المثلى مع المال، بأن يأخذ منه الإنسان ما يكفيه وأولاده لكن لا ينسى حق الله فيه، وهذه هي النظرة الإسلامية للمال، لا يحرم الإسلام امتلاكه شريطة أن يؤدى حق الله فيه، وهذا يدل على حضور الحس الديني عند شوقي في معظم أشعاره.

- الوصل بين شطري البيت الثاني (وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخرًا، وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابا) للتوسط بين الكمالين، حيث اتفقت الجملتان في الإنشائية لفظا ومعنى، وقد أظهر الوصل النظرة المعتدلة للمال ببيان الوجه الصحيح للتعامل معه، وحسَّن الوصل الطباق بين الفعلين (خذ وأعط) تأكيدا لعدم الاقتصار على أحدهما، وهذه النظرة تتماشى مع ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى في شأن قارون:" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" (1)، وبالغ من تأكيد ضرورة إخراج زكاة المال جعل الإعطاء إلى الله مباشرة وليس لمستحقيه من الفقراء وغيرهم (وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ) زيادة في الحث على عدم البخل بإخراج الزكاة.

---

(1) سورة القصص: آية77.

- الاستعارة التصريحية في قوله: (وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخرًا) حيث شبه المال الذي يدخره الإنسان ويورثه أولاده بعد موته إغناء لهم وحماية بالذخيرة التي تحمي صاحبها شرور أعدائه، تأكيدا للتوجيه والنصح بأن يسعى الإنسان جاهدا أن يترك أولاده عندهم ما يحفظ ماء وجوههم، ويغنيهم عن ذل السؤال، ومصداق ذلك قول الرسول ﷺ: "عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا، قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: «لاَ»، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ، قَالَ: «لاَ»، قُلْتُ: الثُّلُثُ، قَالَ: «فَالثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ"[1]، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ.

كل هذه الألوان التي اشتمل عليها البيتان ساعدت على تأكيد الحذر من الدنيا وتجنب الافتتان بالمال، وضرورة الاعتدال في التعامل معه.

ويختم الشاعر أبياته التحذيرية بجملة من الحقائق التي تنقل لنا عصارة خبرته بالحياة، وينقل لنا صورا من الواقع المعيش؛ ليكمل التحذير ويقف الإنسان على حقيقة هذه الدنيا فلا يغتر بها، وذلك قوله:

فَلَو طالَعتَ أَحداثَ اللَيالي *** وَجَدتَ الفَقرَ أَقرَبَها انتِيابا
وَأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَيـــاةٍ *** وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابا
وَأَنَّ الشَرَّ يَصدَعُ فاعِليــهِ *** وَلَم أَرَ خَيِّرًا بِالشَـرِّ آبا

والأبيات تحث كل إنسان على أن ينظر في الواقع حوله ليتأكد من هذه الحقائق التي ذكرها الشاعر، فإنه لو فعل ذلك لسلَّم بتلك الحقائق، وأدرك بما لا يدع مجالا للشك حقيقة هذه الدنيا، وعاش في مأمن من مكرها وعداوتها، فهي تتقلب بأهلها، ولا تدوم على حال، وما أصدق قوله:

فَلَو طالَعتَ أَحداثَ اللَيالي *** وَجَدتَ الفَقرَ أَقرَبَها انتِيابا[2]

وإيراد البيت في سياق أسلوب الشرط تأكيد للحقيقة التي اشتمل عليها، وهي أن الفقر أقرب للإنسان من الغنى؛ حتى لا يغتر أحد بغناه، حيث يفيد أسلوب الشرط تحقق الجزاء عند تحقق الشرط، فلو طالع كل إنسان حوادث الأيام وتبدلها بأهلها لتأكد لديه أن الفقر هو الأقرب لكل إنسان، فكم نرى حولنا من أناس افتقروا بعد غنى، ومرضوا بعد صحة وغير ذلك.

وفي النهاية يختم الشاعر بهاتين البيتين اللذين يحملان خلاصة ما سبق أن ذكره:

وَأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَياةٍ *** وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابا
وَأَنَّ الشَرَّ يَصدَعُ فاعِليه *** وَلَم أَرَ خَيِّرًا بِالشَرِّ آبا

وقد عقد فيهما مقابلة رائعة بين عمل البر والخير وعاقبته الطيبة في الدنيا والآخرة في البيت الأول وبين الشر وعاقبته السيئة في البيت الأخير؛ ليوقفنا على حقيقة كل منهما، وعلى العاقل أن يختار أي الطريقين يسلك.

فالبر لا تقتصر خيريته للإنسان في حياته فقط، وإنما يبقى ثوابه بعد مماته، وضّح ذلك الوصل بين الشطرين للتوسط بين الكمالين في البيت الأول.

وتتأنق الاستعارة المكنية في البيت الأخير في إبراز أثر الشر في إهلاك فاعله (وَأَنَّ الشَرَّ يَصدَعُ فاعِليه) حيث صورت الشر إنسانا قويا فاتكا يمسك معول هدم يقضي به على فاعله، ويمكن إجراؤها

---

[1] صحيح البخاري: كتاب الوصايا، باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، ح (2742)، 3/4، ت/ محمد زهير بن ناصر، نشر/ دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ. وصحيح مسلم: كتاب الوصية، باب: الوصية بالثلث، ح (1628)، 3/ 1250، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

[2] انتيابا: نزولا وإصابة.

على الاستعارة التبعية في الفعل (يصدع) بتشبيه الهلاك بالصدع، واشتقاق الفعل يصدع منه بمعنى يهلك.

وما أروع الختام بهذه الجملة الخبرية (وَلَم أَرَ خَيِّرًا بِالشَرِّ آبا) وهي تذييل قوي يجري مجرى المثل زيادة في الحث على عمل الخير، وعدم الاغترار بالدنيا وفتنتها، تأكيدا للتحذير منها، وهو ما أراد الشاعر تأكيده من أول الأبيات.

وبالرجوع إلى الأبيات من أولها نلحظ أنها يغلب عليها الطابع الخبري وإن امتزجت به بعض الأساليب الإنشائية كالنداء (أخا الدنيا)، والأمر (وَخُذ لِبَنيكَ ...وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ ....) والنهي (فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ...)، والأسلوب الخبري هو المناسب للتحذير من الدنيا حيث يقتضي ذلك عرض حقائق ثابتة عن الدنيا وخداعها، وهذا يناسبه الأسلوب الخبري.

كذلك تكاتفت الصور البيانية على اختلافها من تشبيه ومجاز وكناية لرسم لوحة تحذيرية رائعة توقف الإنسان على حقيقة الدنيا، وكأنه يشاهد هذه الحقائق مصورة أمامه فتتأكد له هذه الحقائق، وبذلك يؤتي التحذير ثمرته، وتوشى ذلك كله ببعض أصباغ البديع كالطباق والمقابلة التي كست الأسلوب حسنا وجمالا، والمعنى قوة وتأكيدا.

المبحث الثالث
موازنة بين القصيدتين

توطئة:

تعد الموازنات من أجمل وأمتع ما يقوم به الباحث في مجال الدراسات البلاغية؛ حيث يطيل الباحث الوقوف أمام النصوص واستنطاقها بالأسرار التي تكتنزها، وإظهار مزاياها من خلال التفريق بين كلام وكلام، وعلى الرغم من ذلك إلا أنها من أشق الأمور، وأشدها معاناة على الباحثين؛ لما تتطلبه من كد الذهن، وطول التفكير حتى يخرج الباحث بحكم صائب، وهذه الصعوبة وتلك المعاناة تتحقق عندما يوازن الباحث بين كلامين لشاعرين أو أديبين مختلفين، حيث لكل منهما أسلوبه وخياله الذي يستطيع من خلاله التفرقة بين كلام كل منهما، لكن يزداد الأمر صعوبة حين تدور الموازنة في حقل متكلم واحد كما في هذا البحث، حيث العملان لشاعر واحد وهو أحمد شوقي، وتتأكد هذه الصعوبة أكثر بأن العملين المراد الموازنة بينهما ليسا عملين متكاملين- قصيدة كاملة- وإنما جزء من قصيدة في غرض معين ضمن أغراض القصيدة، ولذلك فإنني سأحاول قدر الجهد أن أبرز أهم الفروق بينهما من خلال هذا الفصل، مستمدا من الله تعالى العون، سائلا إياه التوفيق والرشاد.

أولا: من حيث موضوع القصيدتين وموقع الأبيات في كل منهما:

بالنظر في موضوع القصيدتين يتضح أن موضوعهما واحد وهو مدح النبي ﷺ، والقصيدتان على الرغم من تعدد الأغراض فيهما -سيرا على نهج القدماء- إلا أن التحذير من الدنيا فيهما كان تخلصا بارعا من الشاعر، ومرحلة وسطى بين المقدمة والغرض الأصلي للقصيدة، حيث جعلهما الشاعر عتبة للانتقال من المقدمة الغزلية إلى غرضه الأصلي، فالقصيدتان تحدث الشاعر فيهما عن الدنيا، وحذر منها بعد معاناة مع المحبوبة وجمالها، وتمنعها عليه في قصيدة نهج البردة، وكذلك بعد معاناة مع الجمال وعتابه في قصيدة ذكرى المولد النبوي، فانتقل من هذه المعاناة للتحذير من الدنيا بعد هذه التجارب، وكأن هذه التجارب قد جعلته خبيرا بالدنيا وبتقلباتها، وأصبح أهلا لأن يزجي النصائح المحذرة منها ومن مكرها، ولا شك أن إيراد هذه النصائح بعد أن ذكر لنا معاناته وتجاربه سيكون أجدى لأن تؤتي هذه النصائح ثمارها؛ لأنها-حينئذ- نصائح مجرب خبير بالدنيا وتلوناتها.

كما نلحظ أيضا أن خبرة الشاعر لم تتوقف على معرفته بأحوال الدنيا وتقلباتها، وإنما هو خبير أيضا بالمخرج من هذه الفتن والإغراءات وكيفية التغلب عليها، والنجاة منها، فلم يتركنا تائهين بعد التحذير، ولا متخبطين أي الطريق نسلك؟ وإنما وضح لنا طريق النجاة في القصيدتين، وقد تمثل هذا الطريق في حسن الخلق وإلزام النفس به، واللجوء إلى الله-تعالى- ورسوله ﷺ في نهج البردة، وأيضا النزول على حكم الله –تعالى- واللجوء إليه دون غيره، ولزوم بابه في ذكرى المولد؛ ليدخل بعد ذلك إلى الغرض الأصلي وهو مدح النبي ﷺ، وبهذا جعل شوقي من المعاناة، وخبرته بأمور الدنيا والتحذير منها منصة وعتبة للوصول إلى الرسول ﷺ حتى يكون أهلا لمدحه، وبهذا كان التشابه واضحا بين القصيدتين من حيث الموضوع، وموقع الأبيات في كل منهما.

لكن الملاحظ أن شوقيا في نهج البردة عمد إلى بيان الملجأ، واتقاء أذى الدنيا وشرورها بعد البيت الأول من الأبيات التحذيرية مباشرة، وبين أن النجاة، وكسر شوكة الدنيا تكمن في التقوى:

يا نَفسُ دُنياكِ تُخفي كُلَّ مُبكِيَةٍ *** وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ
فُضّي بِتَقواكِ فاهًا كُلَّما ضَحِكَتْ *** كَما يُفَضُّ أَذى الرَقشاءِ بِالثَرَمِ
مَخطوبَةٌ مُنذُ كانَ الناسُ خاطِبَةٌ *** مِن أَوَّلِ الدَهرِ لَم تُرمِل وَلَم تَئِمِ
يَفنى الزَمانُ وَيَبقى مِن إِساءَتِها *** جُرحٌ بِآدَمَ يَبكي مِنهُ في الأَدَمِ
لا تَحفَلي بِجَناها أَو جِنايَتِها *** المَوتُ بِالزَهرِ مِثلُ المَوتِ بِالفَحَمِ
كَم نائِمٍ لا يَراها وَهيَ ساهِرَةٌ *** لَولا الأَمانِيُّ وَالأَحلامُ لَم يَنَمِ
طَورًا تَمُدُّكَ في نُعمى وَعافِيَةٍ *** وَتارَةً في قَرارِ البُؤسِ وَالوَصَمِ

كَم ضَلَّلَتكَ وَمَن تُحجَب بَصيرَتُهُ *** إِن يَلقَ صابا يَرِد أَو عَلقَمًا يَسُـــمِ
يا وَيلَتاهُ لِنَفسي راعَها وَدَهـــا *** مُسوَدَّةُ الصُحفِ في مُبيَضَّةِ اللَمَـــمِ
رَكَضتُها في مَرِيعِ المَعصِياتِ وَما *** أَخَذتُ مِن حِميَةِ الطاعاتِ لِلتُخَمِ
هامَت عَلى أَثَرِ اللَذّاتِ تَطلُبُهـــا *** وَالنَفسُ إِن يَدعُها داعي الصِبا تَهِمِ
تَطغى إِذا مُكِّنَت مِن لَذَّةٍ وَهَوًى *** طَغيَ الجِيادِ إِذا عَضَّت عَلى الشُكُمِ

ثم جعل الأخلاق مكملة للتقوى للنجاة من أذى الدنيا، والتغلب على مغرياتها في آخر الأبيات:

صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُـــــهُ *** فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِـــمِ
وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ *** وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ

أما في قصيدة (ذكرى المولد النبوي) فقد حذَّر من الدنيا، واستطرد في بيان مظاهر خداعها، ولم يذكر طريق النجاة المتمثل في الالتزام بحكم الله-تعالى- دون غيره، واللجوء إلى بابه دون سواه إلا في آخر الأبيات:

أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى *** تُبَدِّلُ كُلَّ آونَةٍ إِهابـــــا
وَأَنَّ الرُقطَ أَيقَظُ هاجِعاتٍ ** "وَأَترَعُ في ظِلالِ السِلمِ نابا
وَمِن عَجَبٍ تُشَيِّبُ عاشِقيها ** "وَتُفنيهِمْ وَما بَرِحَتْ كَعابا
فَمَن يَغتَرُّ بِالدُنيا فَإِنّـــــي *** لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثِيابـا
لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابـى
جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شَهدًا وَصابا
فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكمًـــا *** وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابـــا
وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إِلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا
وَلا كَرَّمتُ إِلا وَجهَ حُـــرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَهُ المِنَنَ الرَغابـــا
وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابـا
فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنهـــا *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابا
وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخـــرًا *** وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابـا
فَلَو طالَعتَ أَحداثَ اللَيالي *** وَجَدتَ الفَقرَ أَقرَبَها انتِيابـا
وَأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَيـــاةٍ *** وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابـــا
وَأَنَّ الشَرَّ يَصدَعُ فاعِليـــهِ *** وَلَم أَرَ خَيِّرًا بِالشَرِّ آبـــا

مما يشعر بأن الحس الديني لشوقي في نهج البردة أعلى منه في ذكرى المولد، حيث حرصه من أول الأبيات على أن يبادر المتلقي باتقاء أذى الدنيا، ببيان طريق النجاة مباشرة بعد البيت الأول، ثم يكشف له بعد ذلك أوصافها وما تشتمل عليه من مكر وخداع.

ثانيا: من ناحية العاطفة:

ظهرت بوضوح في القصيدتين العاطفة الدينية القوية عند شوقي، وبدا حضور الحس الديني واضحا فيهما، وظهر الحرص على النصح والإرشاد والتحذير من الدنيا في القصيدتين، إلا أن العاطفة-في رأيي- أقوى في نهج البردة عنها في ذكرى المولد، ويدرك المتلقي ذلك عند النظر لأول وهلة في مطلع الأبيات في القصيدتين؛ ففي نهج البردة نجد شوقيا يخاطب نفسه على طريق التجريد (يا نفس دنياك تخفي....) ذاكرا حرف النداء (يا) لتتيح له من خلال المد المتطاول إخراج الزفرات والآهات التي تكتنف نفسه، لينفس بعض الضيق الذي يشتمل عليه صدره، متبعا ذلك ببيان طريق النجاة في البيت التالي مباشرة (فضي بتقواك فاها...)، ثم يضعها موضع الاتهام والجناية (يا ويلتاه لنفسي راعها ودها....) منكرا عليها لهوها، وانغماسها في المعاصي والملذات دون رادع أو وازع (رَكَضتُها في مَرِيعِ المَعصِياتِ ...هامَت عَلى أَثَرِ اللَذّاتِ تَطلُبُهـــا ...)؛ مما يجعل الندم والتحسر حاضرا بقوة في هذه القصيدة، وهذا-لاشك- أقوى في تغذية العاطفة، أما في قصيدة ذكرى المولد

فيوجه شوقي في مطلع الأبيات حديثه لكل المغترين بالدنيا، المنغمسين في شهواتها ولذاتها (أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى...)، ويرتدي ثوب الناصح الخبير بالدنيا، الذي لا تحوم حوله الشبهات، وأنه العاقل الحصيف الذي لا يمكن أن تغريه الدنيا أو تخدعه؛ ولذلك نراه يكيل النصائح لغيره محذرا وموجها لكنه هو في مأمن من سهامها لأنه خبير بها وبمغرياتها:

فَمَن يَغتَرُّ بِالدُنيا فَإِنّـــــي *** لَبِستُ بِها فَأَبلَيتُ الثِيابا
لَها ضَحِكُ القِيانِ إِلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إِذا تَغابى
جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شَهدًا وَصابا
فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكمًـــا *** وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابـــا
وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إِلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا
وَلا كَرَّمتُ إِلا وَجهَ حُـــرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَهُ المِنَنَ الرَغابـــا
وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابـا
فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنهـــا" *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابا
وَخُذ لِبَنيكَ وَالأَيّامِ ذُخـــرًا *** وَأَعطِ اللهَ حِصَّتَهُ احتِسابـا
فَلَو طالَعتَ أَحداثَ اللَيالي *** وَجَدتَ الفَقرَ أَقرَبَها انتِيابـا

فلم يضع نفسه موضع الاتهام كما هو الحال في نهج البردة؛ مما يشعر بأن الجانب الروحاني كان حاضرا أكثر في نهج البردة، وعمق الإحساس فيها أقوى، وبالتالي كانت العاطفة فيها أقوى.

ثالثا: من ناحية الألفاظ والتراكيب:

اللفظة "هي اللبنة الأولى في الأسلوب، منها يتركب، وعليها يقوم، ومن ثم وجه إليها أرباب البيان اهتمامهم لتكون عماد أسلوب بليغ يقنع العقل ويمتع الوجدان، والألفاظ لا تتساوى فمنها الحسن ومنها القبيح، ومنها السهل ومنها الوعر"[1]؛ لذلك اهتم البلاغيون بالألفاظ، واشترطوا لها شروطا لتكون فصيحة، سهلة على اللسان، متداولة، واضحة المعنى، موافقة للقياس الصرفي[2].

والأسلوب هو مجموعة من الألفاظ مرتبة في اللفظ حسب ترتيب معناها في النفس، فهو" الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره، ويبين عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات"[3].

ومعلوم ما لشوقي من ثروة وفيرة من المفردات المتنوعة، فضلا عما يمتلكه من أسلوب رفيع، ودراية كبيرة بأنواع الأساليب، وصياغة العبارات[4]، حيث يتميز باختيار الألفاظ الجزلة، والأسلوب الهادئ البعيد عن الصخب والضجيج.

ومع أنه كان يستمد ألفاظه وأساليبه من التراث إلا أنه-كما وصفه الدكتور شوقي ضيف-" ما يزال يتخذ من صياغة الشعراء صياغة جديدة له منهم، وليست ملكهم، وإنما هي له ومن صنعته، لا يجور بها على القوالب والأصول والأوضاع القديمة، ومع ذلك فهو صاحبها وهي ذات كيان حي، أو هي ذات عالم مستقل بشوقي وألحانه وما يشدوا من أنغامه"[5].

وبالتأمل في القصيدتين ندرك هذا التقارب الشديد بينهما من ناحية الألفاظ والتراكيب، مما يصعب التفرقة بينهما، حتى إننا نجد بعض الألفاظ ربما جُمعت من واد واحد (الرقشاء والرقط)، (تخفي وتبدل) وغير ذلك إلا أن الألفاظ أقوى في نهج البردة، ووقعها أشد، ويتضح هذا في الكلمات مثل: (فُضِّي-الثرم- ترمل- تئم- جرح-لا تحفلي- جنايتها- البؤس- الوصم- ضللتك- الصاب- العلقم- يا ويلتاه- راعها- ركضتها ... إلى آخر الكلمات في الأبيات.

---

(1) دراسات تحليلية للفصاحة والبلاغة والإسناد. د/ الشحات أبو ستيت، صـ28.
(2) ينظر: دلائل الإعجاز ت/ شاكر صـ34 وما بعدها، وبغية الإيضاح صـ14 وما بعدها.
(3) أسس النقد الأدبي. د/ أحمد بدوي صـ451، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1994م.
(4) ينظر: الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ72.
(5) شوقي شاعر العصر الحديث، د/ شوقي ضيف، صـ80،81.

أما في قصيدة ذكرى المولد فالنبرة أخف، والألفاظ هادئة بعض الشيء (أخا الدنيا- إهابا- ظلال السلم-يغتر بالدنيا- لبستُ- ضحك- القيان- اللبيب ... إلى غير ذلك، مما يؤكد قوة انفعال الشاعر أكثر في قصيدة نهج البردة.

وينطبق على الأسلوب في القصيدتين ما ينطبق على الألفاظ، حيث التقارب الشديد بينهما نظرا لتقارب المعنى، ففي نهج البردة مثلا:

يا نَفسُ دُنياكِ تُخفى كُلَّ مُبكِيَةٍ *** وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ

وفي ذكرى المولد:

أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى *** تُبَدِّلُ كُلَّ آوِنَةٍ إِهابا

وفي نهج البردة:

مَخطوبَةٌ مُنذُ كانَ الناسُ خاطِبَـــــــةٌ *** مِن أَوَّلِ الدَهرِ لَم تُرمِل وَلَم تَئِمِ

وفي ذكرى المولد:

وَمِن عَجَبٍ تُشَيِّبُ عاشِقيها *** وَتُفنيهِمْ وَما بَرِحَتْ كَعابا

وفي نهج البردة:

طَورًا تَمُدُّكَ في نُعمى وَعافِـيَةٍ *** وَتارَةً في قَرارِ البُؤسِ وَالوَصَمِ

وفي ذكرى المولد:

جَنَيتُ بِرَوضِها وَردًا وَشَوكًا *** وَذُقتُ بِكَأسِها شَهدًا وَصابا

إلا أننا نلحظ التنوع والتغاير بين الأساليب في نهج البردة، حيث جاءت أساليبها خليطا بين الخبر والإنشاء كالنداء والأمر والنهي وغير ذلك؛ مما يدل على اختلاط مشاعر شوقي وحرصه على أن يبلغ التحذير من الدنيا مداه عند المتلقي؛ لذلك نراه تارة ينادي نفسه على طريق التجريد وينصحها آمرا وناهيا من خلال أساليب الإنشاء، وتارة يبين لها بعض الحقائق لتأكيد الالتزام بالأمر أو النهي.

أما في ذكرى المولد فيبرز النداء في أول الأبيات (أخا الدنيا) يتبعه الأسلوب الخبري في استطراد طويل، ثم تُطلُّ علينا بعض أساليب الإنشاء في نهاية الأبيات عند حديثه عن جمع المال وشهوته.

وبهذا تناسبت الألفاظ والأساليب مع المعنى المقصود في كلتا القصيدتين، وكانت أقوى في قصيدة نهج البردة؛ لأن العاطفة فيها أقوى كما أسلفنا.

رابعا: من حيث الصورة والخيال:

اعتمد شوقي في القصيدتين على الصورة البيانية بألوانها المختلفة من تشبيه ومجاز وكناية، حيث لعب الخيال دورا رئيسا في إبراز مراد الشاعر في القصيدتين، وكان عاملا قويا في إظهار المعنى وتأكيده فيهما بصورة لافتة للنظر.

ومما يدل على براعة شوقي، وامتلاكه ناصية البيان التنويع في الصورة الواحدة، حيث صور الدنيا في القصيدتين بالأفعى، لكنه جعلها في نهج البردة أفعى لها شكل جميل جذاب (رقشاء: منقطة بسواد وبياض، وأنها تبدي للناس البياض مخفية السواد، حيث (تُخفى كُلَّ مُبكِيَةٍ *** وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ)، وهذا وصف ثابت لها، لا تنفك عنه، أما في قصيدة ذكرى المولد فقد جعلها متلونة متغيرة، تبدل كل وقت ثيابا، فتتلون وتتشكل لتحقق هدفها، وهو الإضرار بالبشر من خلال التعمية عليهم بهذه المظاهر المتعددة، والأشكال المتلونة، فهي حية رقطاء: يخالط سواد جلدها بياض، فتارة تظهر لهم الوجه الحسن (الأبيض)، وتارة تظهر الوجه القبيح (الأسود)، ولا شك أن الخبث في الأولى أشد؛ حيث تبدى الجانب الحسن على الدوام مع أنها تخفي وتكن السوء على الدوام أيضا، فالخداع في نهج البردة أقوى منه في ذكرى المولد؛ ولذلك كان التحذير أشد، والتصوير أقوى، كما أنه في ذكرى المولد حين شبه الدنيا في بداية الأبيات عمد إلى التصوير البياني من خلال التشبيه (أَرى دُنياكَ أَفعى...)، واستمر التشبيه مع الأبيات حتى نهايتها:

لَها ضَحِكُ القِيانِ إلى غَبِيٍّ *** وَلي ضَحِكُ اللَبيبِ إذا تَغابى

...

وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابا

فَلا تَقتُلكَ شَهوَتُهُ وَزِنها *** كَما تَزِنُ الطَعامَ أَوِ الشَرابا

أما في نهج البردة فقد لجأ إلى الاستعارة المستترة خلف التشبيه، حين صور الدنيا إنسانا ماكرا يبطن خلاف ما يظهر:

يا نَفسُ دُنياكِ تُخفى كُلَّ مُبكِيَةٍ *** وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ

وظلت الصورة الاستعارية ملازمة للمعنى في بقية الأبيات، حيث رأينا الدنيا تضحك وتسيء وتسهر وتجني وتضلل ...الخ، ولا شك أن الاستعارة أبلغ -على العموم- من التشبيه في أداء المعنى، وهذا متناسب مع قوة المعنى في قصيدة نهج البردة، كما أن هذا التنويع يدل على ثراء خيال شوقي وجودة قريحته.

وبهذا كان التشبيه هو الصورة الأبرز في قصيدة ذكرى المولد، وكانت الاستعارة هي الأوضح في قصيدة نهج البردة، وتآزر معهما بعض صور الكناية في القصيدتين لإثراء المعنى وتأكيده.

أما عن بقية الألوان البلاغية الأخرى فقد برز بوضوح الإيجاز بالحذف في غير موضع كحذف الموصوف وإقامة الصفة مكانه، أو حذف المسند إليه في مواضع كثيرة في قصيدة نهج البردة تناسبا مع الحالة النفسية لشوقي في هذه القصيدة، حيث يلوم نفسه ويضعها موضع الاتهام، فالنفس ضائقة لا تسمح بالإطناب، وذلك بخلاف قصيدة ذكرى المولد فقد رأينا شوقيا يستطرد ويذكر حقائق كثيرة تثبت خبرته بالدنيا، وعدم اغتراره بها، مؤكدا ذلك من خلال القصر المتوالي:

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللهِ حُكمًـــا *** وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللهِ بابـــا

وَلا عَظَّمتُ في الأَشياءِ إِلا *** صَحيحَ العِلمِ وَالأَدَبَ اللُبابا

وَلا كَرَّمتُ إِلا وَجهَ حُـــرٍّ *** يُقَلِّدُ قَومَهُ المِنَنَ الرَغابـــا

وَلَم أَرَ مِثلَ جَمعِ المالِ داءً *** وَلا مِثلَ البَخيلِ بِهِ مُصابـا

وتوشح ذلك كله ببعض أصباغ البديع في القصيدتين، وكان من أبرزها الطباق والمقابلة.

وبهذا تناسب التحذير من الدنيا فيهما مع موضوع القصيدة، وكان تخلصا بارعا ومرحلة وسطى بين المقدمة والغرض الأصلي للقصيدة، حيث جعلهما الشاعر عتبة للانتقال من المقدمة الغزلية إلى غرضه الأصلي، وكانت قصيدة نهج البردة أقوى من حيث العاطفة والألفاظ والأساليب والصور كما رأينا.

الخـــــــاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد؛

فقد انتهيت بفضل الله تعالى من هذه الدراسة الماتعة، ولاحت لي مجموعة من النتائج أجملها فيما يأتي:

1- وضح من خلال الدراسة قوة شاعرية شوقي حيث جعل التحذير من الدنيا في القصيدتين تخلصا بارعا، وحلقة وصل بين مقدمة القصيدة وغرضها الأصلي؛ فقد جعل شوقي من المعاناة، وخبرته بأمور الدنيا والتحذير منها منصة وعتبة للوصول إلى الرسول ﷺ حتى يكون أهلا لمدحه، وبهذا كان التشابه واضحا بين القصيدتين من حيث الموضوع، وموقع الأبيات في كل منهما.

2- بدا من خلال البحث الحس الديني القوي عند شوقي، والتزامه بتعاليم الدين حين جعل حسن الخلق، واللجوء إلى الله تعالى والتمسك بحبله هو طوق النجاة من مغريات الدنيا وتقلباتها في القصيدتين.

3- ظهرت بوضوح في القصيدتين العاطفة الدينية القوية عند شوقي، وبدا حضور الحس الديني واضحا فيهما، وظهر الحرص على النصح والإرشاد والتحذير من الدنيا في القصيدتين، إلا أن العاطفة-في رأيي- أقوى في نهج البردة عنها في ذكرى المولد كما بدا من خلال الدراسة، وبناء عليه كانت قصيدة نهج البردة أقوى من حيث الألفاظ والأساليب والصور كما رأينا.

4- لحظنا كذلك التنويع في الأساليب والصور التي استعملها الشاعر في التحذير من الدنيا في القصيدتين، فرأينا أسلوب الطباق والمقابلة يتكرران في الأبيات بوضوح، كذلك تكرر التشبيه بأقسامه المتعددة؛ لإبراز المعنى، كما بدا واضحا دور الاستعارة بألوانها المتعددة-خاصة الاستعارة المكنية- وتكرارها وتكثيفها وامتدادها مع الأبيات من أولها إلى نهايتها لرسم صورة واضحة للدنيا.

5- كان التشبيه هو الصورة الأبرز في قصيدة ذكرى المولد، وكانت الاستعارة هي الأوضح في قصيدة نهج البردة، وتآزر معهما بعض صور الكناية في القصيدتين لإثراء المعنى وتأكيده، وكان كل منهما ملائما لمقامه لما ظهر من خلال الدراسة.

6- ظهر أيضا أن الشاعر في غالب معانيه لم يكتف بإيراد صورة واحدة أو أسلوب واحد لكشف حقيقة الدنيا، وإنما تعاور على المعنى-في أغلب الأحيان- صورتان أو أكثر أو أسلوبان مختلفان لتأكيد المعنى نفسه؛ مما يدل على امتلاء نفس الشاعر بالمعنى وإصراره على أن يصل إلى المتلقي كاملا.

7- كما بدا واضحا أيضا استعمال أسلوب التكرار-على مستوى المفردات- حين تسيطر على الشاعر الفكرة، فيلجأ إلى تكرار اللفظة الأم لهذه الفكرة ويلح عليها؛ لترتكز في نفس المتلقي فيثبت المعنى الذي أراده الشاعر.

8- برز بوضوح الإيجاز بالحذف في غير موضع كحذف الموصوف وإقامة الصفة مكانه، أو حذف المسند إليه في مواضع كثيرة في قصيدة نهج البردة تناسبا مع الحالة النفسية لشوقي في هذه القصيدة، حيث يلوم نفسه ويضعها موضع الاتهام، فالنفس ضائقة لا تسمح بالإطناب، وذلك بخلاف قصيدة ذكرى المولد فقد رأينا شوقيا يستطرد ويذكر حقائق كثيرة تثبت خبرته بالدنيا، وعدم اغتراره بها، مؤكدا ذلك من خلال القصر المتوالي وغيره من الأساليب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قائمة المصادر والمراجع

1) أبي شوقي- حسين شوقي، مطبعة مصر،1947م.
2) أدب عصر النهضة، د/شفيق البقاعي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،ط1،1990م.
3) أسس النقد الأدبي. د/ أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1994م.
4) أمير الشعراء أحمد شوقي- نهج البردة، شرح الشيخ سليم البشري، نشر: وكالة الصحافة العربية- الجيزة- مصر.
5) بغية الإيضاح د/ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب،ط17، 1426هـ/2005م.
6) التكرار بلاغة. د/ إبراهيم الخولي، صـ27، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1993م.
7) ثلاثية البردة بردة الرسول ﷺ، لحسن حسين، نشر: دار الكتب القطرية – الدوحة، الطبعة: الأولى – 1400هـ.
8) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط7.
9) دراسات منهجية عي علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، دار خفاجي للنشر والطباعة، القليوبية- مصر.
10) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ شاكر – مكتبة الخانجي، القاهرة .
11) ديوان حافظ إبراهيم، دار صادر، بيروت،ط1،1409هـ-1989م.
12) ديوان شوقي، ت. د/ أحمد الحوفي، مطبعة نهضة مصر، الفجالة- القاهرة.
13) روح الاجتماع د/جوستاف لوبون، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، نشر: توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية- مصر، ط2.
14) شروح التلخيص، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق، ط1، 1323هـ.
15) شوقي شاعر العصر الحديث، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، ط7.
16) صحيح البخاري، ت/ محمد زهير بن ناصر، نشر/ دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ
17) صحيح مسلم، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
18) المتنبي وشوقي وإمارة الشعر، دراسة ونقد وموازنة، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط3.
19) مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات باشا، عدد: 1025، ج749 ص48.
20) معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة، د/ إيميل يعقوب، دار صادر، بيروت.
21) وطنية شوقي، د/ أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط3.